جامعة السودان للعلوم و التكنولوجيا

كلية الدراسات العليا

كلية اللغات

ترجمة من كتاب "قتلة زهرة القمر" للمؤلفه: ديفيد قران - الصفحات (116-167)

A Translation from the Book: ''Killers of the Flower Moon'' by: David Grann Pages (116-167)

بحث تكميلي لنيل درجة ماجستير الآداب في الترجمة

إعداد الطالبة:

نهاد صلاح الدين ابراهيم

إشراف الدكتور:

محمد الأمين الشنقيطي

2020

شكر و عرفان

في ظل أيام شداد و في ليالٍ موحشة لا أخفي كم كان في تكملة هذه الرسالة من صعوبة بل و كم كان إكمال و إنجاز الكثير من الأشياء من صعوبة!

ابدأ شكري و حمدي لله جل و علا الذي أمدني بقوة و أحاطني بلطف و توفيق و لايزال يجزيني و أزال أحمده ...

أمي رفيقة الخطوة الأولى و الخطوة ما قبل الأخيرة

السحابة الممطرة طيلة السنوات العجاف أنا ممتنة ...

رفيقات عمري العزيزات دمتم لي وطن و متكأ ...

معلمي الأفاضل الدكتور محمد الأمين الشنقيطي و الدكتور عباس مختار إذ لولاهم لما وصلت إلى ما انا عليه ...

جزيل الشكر لكل من أعانني قريب كان أم بعيد قولا كان أو عملا في إتمام هذه الرسالة ...

و أخيرا أود شكر نفسي هذه النفس الآملة الطموحة التي تكابد الكثير من أجل رفعة شأنها و شأن وطنها و من تحب...

إهـــــداء

بما أن الكتاب يتحدث عن معاناة الأقليات المجتمعية

فأنـي أهدي هذا العمل لكل من ظُلم و جير عليه و لم يُقدر كإنسان أو يوتى حقه كاملا

أهديه لشهداء بلادي في ثورة سبتمبر العظيمة و لفقراء بلادي و مظاليمها و لكل قائل لكلمة حق!

مقدمة المترجم

تلعب الترجمة حلقة ربط هامة بين اللغات المختلفة وذلك بتحقيقها للتواصل الاجتماعي و الثقافي بين المجتمعات إذ انها تعكس كل ما صغر او كبر من اوجه إختلاف او تشابه في جوانب الثقافة المراد ترجمتها إلى اللغة الثانية مما يترك القارئ في حالة وعي و دراية تامة بما يقرأ فينعكس ذلك في تفاعله و تعامله مع الشعوب الأخرى على وجه من التفاهم و المدنية أكمل. و لذلك تعد كافة أنواع الترجمة جسرا لابد لنا من عبوره إن أردنا التواصل مع العالم اجمع إرتقاء بذواتنا و أمتنا فإن ترجمة كل ما هو قييم تعد السبيل الأنجع لبلوغ هذا المرام.

إخترت لإكمال رسالتي ان اترجم كتابا أدبيا حوت سطوره احداثا واقعية حدثت في أوائل عشرينيات القرن الماضي و أقتبس من مبتعث للدراسات و الإستشارات الأكاديمية قول: "تعد الترجمة الأدبية من أرقى و أصعب أنواع التراجم، و يأتي الرقي من طبيعة تلك النصوص فهي تنصب حول نقل تراث فنَي وثقافي من لغة إلى أخرى، أما بالنسبة للصعوبة فتتمثل في حاجة ذلك النوع إلى مبدع حقيقي يتسطيع أن يترجم المفردات و يصوغ الجمل و ينقل المشاعر والأحاسيس و في ذات الوقت يجعل القارئ يتعايش مع الترجمة مثلما يتعايش معها أصحاب اللغة الأصلية".

قتلة زهرة القمر هو عنوان الكتاب الذي انتقيت و هو مستوحا من قصة حقيقية جرت في مدينة اكلاهوما الأمريكية التي قطنها شعب الأوساج اكثر الشعوب ثراء في ذلك الحين و ذلك بعد إكتشاف البترول في أراضيهم ففزوا حينها من درك الشقاء إلى أعلى درجات الترف و الثراء مخلفيين الكثير من امراض النفوس بقلوب غيرهم من البيض مما أدى إلى إستهدافهم و إراقة دمائهم واحدا تلو الأخر فدفع ذلك بثورة في الرأي العام و قام مكتب التحقيقات بصفوة من الضباط أهمهم توم وايت بتبني القضية و التحقيق في تلك الجرائم التي غلفها الغموض و تستر عنها الفساد فتبلورت بهؤلاء الصفوة ملامح لبدايات تأسيس المباحث الفيديرالية (FBI) في عشرينيات القرن التاسع عشر.

من الصعوبات التي واجهتني في هذا الكتاب تداخل الجمل ببعضها تقديما و تأخيرا و احتواء القصة على الكثير من النصوص المُقالة اضف أنه هنالك ثقل في لغة الكاتب المستخدمة نفسها إذ حوت الكثير من المفردات والجمل ذات الدلالات الثقافية و العرقية التي أفنيت في إيجاد مقابلها الملائم فإستطعت من خلال البحث الدوؤب و القواميس الجيدة و الإستعانة بالمشرف حل طلاسم ما استصعب من مفردات و إيجاد مقابل مناسب لكل منها.

الشـــــــــاهد

المؤامرة هي كل مالا تبدو عليه الحياة العادية فهي اللعبة الخفية الباردة الحتمية المتمحورة و المقتصرة علينا للأبد نحن المعابون المخطئون الابرياء الذين نحاول خلق معنى جاد للتنافس اليومي.

لدى المتأمرين منطق وجرأة ليست في متناول أيدينا و كل المؤمرات هي نفس القصة الجاذبة لرجال وجدوا اتساقا في بعض من ضروب الجريمة.

-دون دبليلو ليبرا

وزارة "الفضيلة الميسرة"

تلقى في أحدى أيام صيف 1925 العميل الخاص توم وايت المسؤول من مكتب التحقيقات في هوستين طلب عاجل من الرئاسة بواشنطن، فقد طلب الرئيس الجديد جي.إيدجر هوفر أن يتحدث معه بصورة شخصية في الحال؛ فجهز وايت أغراضه بعجل.

طلب هوفر من فريقه أن يرتدوا معاطف سوداء و ربطات عنق رمادية و أحذية سوداء لامعة فقد أرادهم أن يبدوا على شاكلة معينة من الأمريكيين بهيئة محامي قوقازي محترف. بدا هوفر أنه يصدر توجيهات جديدة كل يوم من نوع -على أحدكم أن لا- أما وايت فقد إعتمر قبعة رعاة البقر الكبيرة خاصته بإستخفاف و تحدي.

ودع توم وايت زوجته و ولديه الصغيرين وإستقل القطار كما كان يستقله قبل سنين قد خلت عندما كان يخدم كمحقق بالسكة حديد جائلا من محطة لأخرى مطاردا للمجرمين، أما الان فلم يكن مطاردا شيئا سوى مصيره. عندما وصل إلى محطة العاصمة، شق وايت طريقه عبر الضوضاء و الأضواء إلى الرئاسة فقد أُخبر بأن لدى هوفر"رسالة هامة" له، لكنه لم يدرِ كنهها. كان وايت رجل قانون ذو عقلية تقليدية، حيث خدم في حراس تكساس حتى مطلع القرن الذي تلى و قضى معظم حياته ممتطيا للجواد جائلا عبر الحدود الجنوبية الغربية حاملا بيده بندقية "وينشستر" أو المسدس ذو الست طلقات ذا المقبض اللؤلوي متعقبا للهاربين و القتلة و اللصوص.

بلغ طول وايت ستة أقدام و أربعة بوصات ذا أطراف نحيلة و قوية و يتسم برباطة جأش غريبة لحامل سلاح، يبدو كرجل مبيعات عندما يرتدي لبدلة رسمية مالكا لنفحة من العصر الأسطوري. و بعد أعوام كتب وكيل عمِل مع وايت في الدائرة الرسمية أنه "يخاف ربه كخوف مدافعي الآلمو العظماء" و أضاف أنه كان "منظراً مثيراً للإعجاب بقبعة جلد الظباء السويدية الكبيرة خاصته و خيطها السميك المتدلي من راسه إلى أخمص قدميه ملامس كل جزء من جسمه الخلفي. كان لديه خطى أقدام مهابة و ناعمة و هادئة كالقطة كان يتحدث بنفس الطبع الهاديء و يصوب مباشرة على الهدف.

كان يأمر الغالبية بإحترام و يرعب الشباب الغربيين مثلي الذين ينظرون إليه بأحاسيس ممتزجة من التبجيل و الخوف و لو نظر أحد بإهتمام كاف إلى عينيه الرماديتين لرأى فيهما نظرة عطوفة و متفهمة.

رغب توم وايت بالانخراط في الجيش ليحارب في الحرب العالمية الأولى و لكنه منع بسبب جراحة سابقة؛ فإنضم لمكتب التحقيقات عام 1917 و كما قال فإن مهنته كعميل خاص كانت طريقته لخدمة بلاده. و لكن لم تكن تلك الحقيقة الكاملة فالحقيقة أنه أدرك أن عشيرة رجال القانون الحدودية التي ينتمي لها كانت تتلاشى و بالرغم من أنه لم يبلغ الأربعين من عمره بعد، إلا أنه خشي أن يصبح رفات جثة في برنامج متنقل للغرب الجامح حي لكنه في عِداد الموتى.

توم وايت

أنشأ الرئيس ثيوودور روزفيلت مكتب التحقيقات عام 1908 آملا في أن يملأ الفجوة في تطبيق القانون الفيدرالي (بسبب المعارضة الدائمة لقوات الشرطة القومية قد تصرف النائب العام لروزفيلت من غير موافقة قانونية موجها رجلا من الكونغرس لتصنيف التنظيم الجديد على انه "طرف نذل في الحكومة").

عند إنضمام وايت للمكتب لم يكن لديهم حتى ذلك الوقت سوى مئات قليلة من النواب ذوي معرفة سطحية بالمجال المكتبي، كان سلطته في الجرائم محدودة و كان العملاء يتعاملون مع خليط من القضايا مثل تحقيقهم في جرائم مكافحة الإحتكار والإنتهاكات البنكية و السيارات المسروقة و المشحونة عبر الطرق السريعة و عقاقير منع الحمل وأفلام مباراة الملاكمة للمحترفين والكتب البذيئة و هروب المسجونين بجرائم فيدرالية إضافة إلى الجرائم المرتكبة في الأراضي الهندية.

و كحال جميع النواب كان على وايت أن يكون جامعاً دقيقاً للحقائق و كما قال لاحقا "لم يكن لدينا سلطة الإعتقال في تلك الأيام" كما لم يكونوا مخولين بحمل الأسلحة.

بالرغم من أن وايت قد رأى العديد من رجال القانون يقتلون على الحدود، إلا انه لم يتحدث كثيرا عن تلك الوفيات إذ تسببت بتخليه الوشيك عن مهنته فهو لم يكن يريد ترك هذا العالم لأجل بعض من التمجيد بعد مماته فالميت ميت، ولذلك كان في بعض الأحيان يدس مسدسا ذا ست طلقات في حزامه و لتذهب قوانين "لا يجب عليك أن" إلى الجحيم.

كان ايضا أخوه الصغير دوك جي.سي وايت حارسا سابقا لتيكساس و منضما لمكتب التحقيقات. كان جي.سي رجلا فظا سكيرا غالبا ما يحمل مسدس الست طلقات بمقبض العاج و سكيناً مضمورة في حذائه الجلدي من أجل الإحتياط. و كان متهورا أكثر من توم و كما قال أحد اقاربهم انه "عنيف و مستعد". كان الأخوان وايت جزءا من الفريق الممثل للبلاد لرجال القانون في الحدود و المعروفين داخل مكتب التحقيقات برعاة البقر.

لم يكن لدى توم وايت تدريب رسمي كضابط منفذ للقانون فعانى ليجيد الأساليب العلمية الحديثة مثل فك الألغاز المحيرة و عقد بصمات الأصابع و لكن بالرغم من هذا فقد ظل متمسكا بالقانون منذ أن كان شابا و شحذ مهاراته كمحقق في القدرة على تبين الانماط الضمنية وتحويل الحقائق المنتشرة إلى سرد منمق. و بالرغم من حساسيته ضد الخطر فقد خاض توم وايت مواجهات عنيفة بالسلاح و على عكس اخاه دوك الذي و كما قال أحد النواب أن لديه "مسيرة مكسية بالرصاص" فإن لتوم

عادة شبه سيئة في عدم رغبته بإطلاق الرصاص و كان فخورا بحقيقة انه لم يطرح أحدا ارضا من قبل، حيث كان يبدو كأنه يخاف من غرائزه المظلمة فقد شعر أنه يوجد خيط رفيع يفصل بين الرجل الجيد و السيء.

شهد توم وايت العديد من أقرانه في مكتب التحقيقات يتعدون ذلك الخيط و في خلال فترة ادارة هاردن في بداية عام 1920 إكتظت وزارة العدل بموظفيين معدومي الضمير وأقارب للسياسيين من بينهم ويليم بيرنز العميل السري سيء السمعة و رئيس مكتب التحقيقات.

اخترق بيرنز القوانين بعد أن عين كموجه عام 1921 و وظف نواب محتالين من بينهم رجل ذا ثقة عالية نشر الحماية و الغفران لأعضاء عالم الرزيلة و الإجرام فأصبحت وزارة العدالة تعرف بوزارة الفضيلة الميسرة.

في عام 1924 و بعد أن كشفت لجنة من الكونغرس ان هاري سينكلير بارون البترول قد رشى ألبيرت فول سكرتير الشوؤن الداخلية لكي يجفف الإحتياط البترولي في قبة إبريق الشاي -الاسم الذي سيرتبط بالفضيحة للأبد- أوضحت التحقيقات التي تلت مدى فساد نظام العدالة في الولايات المتحدة.

عندما بدأ الكونغرس بالبحث في وزارة العدل، استخدم بيرنز و النائب العام كل قواهم و كل وسائل تطبيق الشريعة لإحباط التحقيقات وعرقلة العدالة حيث تم تعقب اعضاء من الكونغرس و اقتحمت مكاتبهم و تصنت على اتصالاتهم؛ فأشجب أحد اعضاء مجلس الشيوخ المؤامرات العديدة غير الشرعية، والهجمات و التجسس و الخدع و استخدام المسراق التلفوني ليس بهدف "تحري و رفع الدعاوي القضائية و لكن...من أجل حماية المستغليين آخذي الرشاوي و الموظفين بالمحسوبيه".

و بحلول صيف عام 1924، كان كالفين كوليدج خليفة هاردينج قد تخلص من بيرنز وعين هارلان فيسك ستون محامياً جديداً. و نظرًا لنمو البلاد و كثرة القوانين الفيدرالية، خلص ستون إلى أن قوة الشرطة الوطنية لا غنى عنها، ولكن يتعين تغيير المكتب تغييرا كليا من أجل تلبية هذه الحاجة.

و كانت المفاجأة للعديد من منتقدي الوزارة، عندما اختار ستون و أثناء بحثه عن بديل دائم، نائب مدير المكتب ج. إدغار هوفر، البالغ من العمر 29 عاماً، ليشغل منصب المدير بالنيابة. و على الرغم من أن هوفر قد تجنب فضيحة قبة إبريق الشاي ، إلا انه كان يشرف على استخبارات القسم الفاسدة، والتي كانت تتجسس على الأفراد فقط لمجرد إنتماءاتهم السياسية.

لم يكن هوفر محقق ابدا و لم يسبق له أن وُضع في موقف لإطلاق نار و لم يقبض عليه قط. كان جده ووالده اللذان توفيا، يعملان لدى الحكومة الاتحادية، وكان هوفر، الذي لا يزال يعيش مع والدته، مخلوقاً من البيروقراطية – في قيلها وقالها، ولغتها الخاصة، وصفقاتها غير المعلنة، وحروبها الإقليمية اللادموية الضارية. وعندما طمع هوفر في الإدارة كوسيلة لبناء إمبراطوريته البيروقراطية الخاصة، أخفى عن ستون مدى دوره في عمليات الاشراف المحلي و وعد بحل شعبة الاستخبارات

فنفذ بحماس الإصلاحات التي طلبها ستون و التي عززت رغبته في إعادة تشكيل المكتب ليصبح قوة حديثة. وفي مذكرة له، أبلغ هوفر ستون أنه بدأ في تمشيط ملفات الموظفين وتحديد العملاء غير الأكفاء أو المحتالين الذين ينبغي فصلهم.

كما قال هوفر لستون إنه رفع بحسب رغباته مؤهلات التوظيف للوكلاء الجدد، طالبا منهم الحصول على بعض التدريب القانوني أو المعرفة في مجال المحاسبة. و كتب هوفر " ستبذل كل الجهود من قبل موظفي المكتب لتعزيز الروح المعنوية و لتنفيذ الرسالة الخاصة بسياساتكم". و في ديسمبر - كانون الأوّل 1924، منح ستون هوفر العمل الذي كان يتوقه و الذي بدوره سيعيد تشكيل المكتب بسرعة ليصبح قوة متجانسة –تلك القوة ستنتشر خلال فترة حكمه كمدير و التي دامت ما يقارب على خمسة عقود، ليس فقط لمكافحة الجريمة ولكن أيضاً لارتكاب انتهاكات فاضحة بتوليهم السلطة.

كَلف هوفر وايت بالفعل بالتحقيق في واحدة من أولى قضايا الفساد في مجال تنفيذ القانون على أن يتم متابعتها في أعقاب فضيحة قبة إبريق الشاي. تولى وايت منصب آمر السجن الفيدرالي في أتلانتا، حيث قاد عملية سرية للقبض على المسؤولين الذين كانوا يمنحون السجناء ظروف معيشية أفضل وإفراج مبكر في مقابل حصولهم على الرشاوي و صادف وايت في يوم من الأيام أثناء التحقيق، حراساً يضربون اثنين من السجناء. فهدد وايت بطرد الحراس إذا أساءوا معاملة سجين مرة أخرى.

و طلب أحد السجناء بعد ذلك رؤية وايت على انفراد و أظهر السجين لوايت كما لو انه أراد التعبيرعن امتنانه، الكتاب المقدس ، ثم بدأ بفرك خليط من اليود والماء على صفحاته الفارغة فبدأت تظهر كلمات بطريقة سحرية مكتوبة بالحبر غير المرئي و التي كشفت عن العنوان الذي كان يختبئ فيه سارقٌ لبنك – الذي قد هرب قبل أن يصبح وايت مديرا للسجن– فساعدت هذه الرسالة السرية في القبض على السارق. و بدأ السجناء الآخرون في ذات الوقت بتبادل المعلومات، مما سمح لوايت بالكشف عن ما كان يوصف بأنه نظام من "المحاباة المصقولة و حَصانة الأغنياء". فجمع أدلة كافية لإدانة السجان السابق، و الذي أصبح السجين رقم 24207 في نفس السجن.

و كتب مسؤول من المكتب زار السجن في تقرير: "لقد أدهشت كثيرا بالشعور السائد بين السجناء فيما يتعلق بعمل وسلوك توم وايت، يبدو أن هناك شعوراً عاماً بالارتياح والثقة، و بأنهم الآن سيحصلون على صفقة متساوية". و بعث هوفر بعد التحقيق، برسالة تهنئة إلى وايت جاء فيها: "لقد جلبت الفخر والامتياز ليس لنفسك فحسب، بل للواجب الذي نتشاركه جميعا في قلوبنا".

وصل وايت الآن إلى المقر الرئيسي ، والذي كان يقع آن ذاك في طابقين مستأجرين بمبنى في زاوية شارع كيه ستريت و جادة فيرمونت. كان هوفر يطرد العديد من رجال القانون الحدوديين من المكتب، فأصبح بإمكان وايت أثناء توجهه إلى مكتب هوفر أن يرى سلالة جديدة من العملاء و هم الأولاد الجامعيين الذين يكتبون بشكل أسرع من ما يطلقون.

استهزأ بهم كبار السن قائلين بأنهم "فتيان الكشافة المدربين من الكلية ذوو الأقدام المسطحة "، وهذا لم يكن خاطئا؛ كما اعترف أحد العملاء في وقت لاحق قائلا "كنا مجموعة من المبتدئين الذين لم تكن لدينا فكرة عما كنا نفعله."

تم قيادة وايت إلى مكتب هوفر الأنيق، حيث يوجد مكتب خشبي مهيب و خريطة على الحائط توضح مواقع المكاتب الميدانية للمكتب وهناك كان الرئيس بنفسه حاضرا من قَبل وايت. كان هوفر آن ذاك نحيفًا بشكل ملحوظ و ذا شكل صبيياني. و كان في صورة التقطت له قبل عدة أشهر مرتد لمعطف داكن و أنيق، ذا شعر سميك متموج و فك حاد ضاغطا لشفتيه بقوة و كانت لعيناه البنيتان نظرة حادة، كما لو أنه الناظر بحق عبر الكاميرا.

هوفر بمكتب التحقيقات في ديسيمبر من عام 1924

لاح وايت بقبعة رعاة البر خاصته فوق هوفر الضئيل ، الذي كان حساسًا جدًا بسبب قامته الضئيلة لدرجة أنه نادراً ما يعيين عملاء أطول منه في المقر و قام بعد ذلك بتثبيت منصة مرتفعة وراء مكتبه للوقوف عليها. و إذا كان هوفر قد شعر بالهول من هذا المنظر التكساسي الضخم، الا انه لم يُظهر ذلك و أخبر وايت أنه بحاجة لمناقشة مسألة ذات أهمية قصوى معه.

كانت للمسأله علاقة بقتل الأوساج. أدرك وايت أن القضية المثيرة كانت واحدة من أولى التحقيقات الرئيسية في جرائم القتل التي عمل فيها المكتب، لكنه لم يكن على دراية بتفاصيلها، فاستمع بينما تحدث هوفر بطريقة متقطعة، وهي الاستراتيجية التي ابتكرها هوفر في شبابه للتغلب على تلعثم سيء أصابه.

أرسل بيرنز المدير آنذاك، وكيلاً من المكتب للتحقيق في جرائم القتل التي بلغ مجموعها آنذاك أربعة وعشرين أوساجيا على الأقل. و ذلك بعد أن أصدر مجلس أوساج القبلي القرار طالبا المساعدة من وزارة العدل في ربيع عام 1923.

أمضى العميل بضعة أسابيع في مقاطعة أوسيدج قبل أن يخلص إلى أن " لا جدوى من أي تحقيق". وتم بعد ذلك إرسال عملاء آخرين للتحقيق، لكن دون جدوى.

أُجبر الأوساج على تمويل جزء من التحقيق الفيدرالي بأموالهم الخاصة - وصل المبلغ في النهاية إلى 20 ألف دولار، وهو ما يعادل اليوم حوالي 300،000 دولار. و على الرغم من هذه النفقات، قرر هوفر إلقاء القضية مرة أخرى على سلطات الدولة بعد أن يتولي قيادة المكتب، وذلك للتهرب من مسؤولية فشلها. وأكد وكيل مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) المسؤول عن المكتب الميداني في أوكلاهوما لهوفر أنه يمكن التعامل مع عملية النقل دون أي تعليق غير مرغوب به من الصحافة.

و مع ذلك كان هذا قبل المكتب، إذ أن أيادي مكتب هوفر قد لطختها الدماء فقبل بضعة أشهر، أقنع العملاء الحاكم الجديد لأوكلاهوما بالإفراج عن بلاكي طومسون الخارج عن القانون -الذي تم القبض عليه وإدانته بسرقة أحد البنوك- حتى يتمكن من العمل بشكل سري لدى المكتب لجمع الأدلة على عمليات قتل الأوساج .

وفي التقارير الميدانية، لاحظ العملاء بحماس و أعلنوا ببدأ رجلهم السري العمل بين "المحتالين في حقول النفط للحصول على الأدلة التي وَعَدَنا بها...نتوقع نتائج رائعة" لكن تم فقد بلاكي في تلال الأوساج عندما كان من المفترض أن يبقيه العملاء تحت المراقبة المباشرة فشرع في سرقة أحد البنوك وقَتْل ضابطا للشرطة و استغرق الأمر شهوراً لكي تعتقله السلطات، وكما أشار هوفر "كان على عدد من الضباط أن يضعوا حياتهم على المحك في سبيل تصحيح هذا الخطأ".

وحتى تلك اللحظة، كان هوفر قادرا على إبقاء دور المكتب في هذه القضية بعيدا عن الصحافة لكن كانت هناك ضجة سياسية متزايدة وراء الكواليس. فقد بعث النائب العام ببرقية الى هوفر تشير الى انه يُحمل المكتب مسئولية فشل التحقيق. أرسل جون بالمر محامي القبيلة المعروف، رسالة غاضبة إلى تشارلز كورتيس عضو مجلس الشيوخ في كنساس، ملمحا فيها إلى أن مكتب التحقيق قد اعابه الفساد: "أضم صوتي إلى الاعتقاد العام بأن القتلة كانوا أذكياء بما فيه الكفاية و مستطيعيين سياسياً ومالياً على إبعاد الضباط الشرفاء والقادرين أو إرسالهم إلى مناطق أخرى، و لإخراص المسؤولين غير الشرفاء كذلك الذين كان واجبهم و لازال متمثلا في مطاردة مرتكبي هذه الجرائم الفظيعة". و كان كوميستوك محامي أوكلاهوما و الذي عمل كوصي على العديد من أوساج، قد أطلع شخصيا السناتور كورتيس على الفوضى الكارثية للمكتب.

ظلت قبضة هوفر على السلطة ضعيفة عند مقابلته لوايت، و صار يواجه فجأة الفضيحة و هي الشيء الوحيد الذي فعل كل شيء من أجل تجنبه منذ أن أصبح مديرا. ويعتقد هوفر ان الوضع فى اوكلاهوما كان حادا وحساسا إذ ان حياته المهنية يمكن لها ان تنتهي إن ظهر ولو القليل من سوء السلوك في وقت ليس ببعيد من فضيحة قبة إبريق الشاي. و قبل أسابيع فقط، أرسل هوفر مذكرة سرية إلى وايت وعملاء خاصين آخرين، قائلاً: "هذا المكتب لا يستطيع تحمل أن يكون لديه فضيحة عامة تصيبه"

أصبح سبب استدعاء وايت واضح له بينما كان يستمع إلى هوفر، إذ ان هوفر بحاجة إلى وايت -واحد من عدد قليل من الوكلاء ذوي الخبرة ،واحد من رعاة البقر- لحل قضية جرائم قتل الأوساج وبالتالي حماية وظيفة هوفر. وقال هوفر "اريدك ان تتولى التحقيق". ثم أمره أن يذهب لمدينة أوكلاهوما لتولي إشراف المكتب الميداني هناك. وأشار هوفر في وقت لاحق إلى وايت أنه و بسبب الخروج على القانون في المنطقة، فإن "قد يكون للمكتب عمل أكثر من أي مكتب آخر في البلاد، وبالتالي، يجب أن يكون مسؤولا ًعنه محققاً كفؤ ومتمرس تماماً، رجل يمكنه التعامل مع الرجال ".

علم وايت أن الانتقال إلى أوكلاهوما سيكون عبئاً كبيراً على عائلته لكنه فهم مخاطر المهمة، وقال لهوفر: "أنا إنسان بما فيه الكفاية و طموح بما فيه الكفاية لأقبل بذلك". ولم يكن لدى وايت أي شك في ما سيحدث إذا لم ينجح فقد تم نفي عملاء سابقين في القضية إلى مواقع أمامية بعيدة أو تم طردهم من المكتب بالكامل و قال هوفر: "لا يمكن أن يكون هناك أي عذر للفشل". وكان وايت على علم أيضا بأنه قد تم قتل العديد من أولئك الذين حاولوا القبض على القتلة فأصبح هوفر رجلا مستهدفا منذ اللحظة التي خرج فيها من المكتب.

9

رعاه البقر المتخفيين

استعرض وايت بعد توليه مكتب مدينة أوكلاهوما الميداني في يوليو 1925، ملفات المكتب الضخمة حول جرائم القتل العمد التي جُمعت علي مدى العامين الماضيين و كانت حالات القتل التي لم يتم حلها بسرعة غالبا مالا يتم حلها أبدا إذ أن الادله تجف و الذكريات تتلاشي.

انقضت أكثر من أربع سنوات منذ مقتل آنا براون وتشارلز وايت هورن ، وغالبا ما تكون الطريقة الوحيدة لحل مثل هذه القضايا هو العثور على دليل مطمور داخل مخبأ السجلات الأصلي. و كرواية صفحاتها بلا ترتيب كانت ملفات جرائم قتل الاوساج إذ لم تحتوي الملفات على تواريخ إلا بشكل طفيف مع القليل من المعطيات الخالية من اي تسلسل زمني أو سرد.

عزا وايت هذه العشوائية لسبب خفي و على الرغم من انه اعتاد التعامل مع هذا الموت الوحشي على الحدود، إلا أن القسوة المفصلة في التقارير كانت مثيرة جدا. إذ كتب أحد الوكلاء عن تفجير منزل عائلة سميث "هلكت الامرأتان علي الفور، وتم تمزيق جثتيهما اربا اربا، ثم عُثر في وقت لاحق على قطع من لحميهما ملتصقة علي منزل ببعد 300 قدم." وقد ركز العملاء السابقين على القضايا الست التي بدأ من المرجح حلها و هم مقتل ريتا سميث وزوجها و بيل سميث وخادمهم نتي بروشير وإطلاق النار المميت لآنا براون و هنري روان وتشارلز وايت هورن.

عانى وايت للعثور علي صلات بين جميع القتلى الاثني عشر، لكن كانت بعض الأشياء واضحة مثل استهداف هنود الاوساج الأغنياء، و أن ثلاثة من الضحايا-آنا براون و ريتا سميث و والدتهم ليزي جمعتهم صلة قرابة لكن من المستغرب ان العملاء لم يتحدثوا إلى مولي بورهارت، ابنة ليزي الناجية.

تم تعليم المحققين رؤية العالم من خلال أعين الآخرين ولكن كيف يمكن لوايت الفهم التام ما عاشته هذه المراة منذ مولدها في كوخ على البراري الموحشة ثم قذفها في ثروة و من ثم إثارة الرعب فيها برؤية اسرتها وغيرها من الاوساج يقتل واحدا تلو الآخر؟. قدمت الملفات القليل من الرؤى حول حياة مولي ، مشيرا فقط إلى انها كانت مريضه بمرض السكري وانها عزلت نفسها في منزلها.

بدت القليل من تفاصيل الملفات صادقة إذ أن القتلة المتكررين يميلون إلى التمسك بشكل صارم بنمط معين، ومع ذلك فان جرائم القتل العمد نُفذت بمجموعة من الأساليب المحيرة اذ لم يكن هناك علامة دالة. ذاك، إلى جانب حقيقة أن الاجساد ظهرت في اطراف مختلفه من الولاية والبلاد و هذا ما يوحي بأنه ليس من صنيع قاتل واحد. بدلا من ذلك، فإن أيا كان من يقف وراء تلك الجرائم فإنه قد عين له أتباعاً.

أعطت أيضًا طبيعة جرائم القتل نظرة ثاقبة على ماهية العقل المدبر إذ لم يكن الشخص قاتلًا متسرعًا بل هو خبيرٌ في المؤامرات، ذكي بما يكفي لفهم المواد السامة و ذو تخطيط كاف لتنفيذ رؤيته الشيطانية على مدار سنوات.

بدا لوايت عند تدقيقه في المعطيات الواردة في التقارير، أن سطر القصة المعقول بدأ يتماسك واحدا تلو الآخر ولكن كان دائما ما يتم ارجاع المعلومات عند التفتيش الدقيق إلى نفس المصادر المشكوك فيها و هم الجواسيس و رجال القانون المحليون ، الذين استندت آرائهم على ما هو أكثر بقليل من الأدلة السماعية.

و نظرًا لأن الفساد بدا يتغلل كل مؤسسة في مقاطعة الأوساج، فإن هذه المصادر قد تنشر عن قصد معلومات مضللة لإخفاء سير الأحداث الحقيقي للرواية فأدرك وايت أن أكبر مشكلة في التحقيقات السابقة لم تكن في فشل العملاء في الكشف عن أي خيوط ؛ بل لوجود العديد من الدلائل حيث يمكن للعملاء الكشف عن دليل واحد، ثم إسقاطه ببساطة، أو أن يفشلوا في تأكيده أو دحضه بشكل قاطع و حتى عندما بدا وكأنهم يسيرون في الطريق الصحيح، فإنهم لم يتمكنوا من تقديم أي دليل مقبول في المحكمة.

كان على وايت أن يتعلم العديد من التقنيات الجديدة، عند سعيه إلى أن يكون رجل أدلة ذو طراز عصري ولكن كانت اكثر التقنيات فائدة وصالحة لكل زمان هي الفصل بهدوء و بشكل ممنهج بين الشائعات والحقائق التي يمكن أن يثبتها إذ لأنه لم يكن يريد شنق رجل لمجرد حبكه لقصة جاذبة.

و احتاج وايت بعد سنوات من التخبط في التحقيقات المحتملة لجرائم القتل التي وقعت في الأوساج، إلى التخلص من نصف الحقائق و اعتماد رواية لا شك فيها مرتكزا على ما أسماه "سلسلة من الدلائل غير منقطعة".

فضل وايت التحقيق في قضاياه بمفرده، لكنه أدرك بالنظر إلى عدد جرائم القتل و الدلائل التي تحتاج لمتابعة، أنه بحاجة إلى تجميع فريق ومع ذلك لم يكن حتى هذا الفريق ليتغلب على إحدى العقبات الرئيسية التي أعاقت المحققين السابقين و هي رفض الشهود التعاون بسبب التحيز والفساد، أو حسب ما عبر عميل عنه "خوف عام من التعرض للتصفية" لذا قرر وايت بأن يكون بنفسه الوجه العام للتحقيق، بينما عمل معظم العملاء بشكل سري.

وعد هوفر وايت بقوله "سأخصص عددًا أكبر من الرجال بقدر حاجتك" و بمعرفةً بقدرات أولاد جامعته، أمد هوفر بعدد يسير من رعاة البقر الآخرين، بمن فيهم شقيق وايت دوك. كان هؤلاء العملاء لا يزالون يتعلمون التنقيب العلمي، و يتأقلمون على إكمال تقاريرهم في آلالة الكاتبة لكن قرر وايت أن هؤلاء الرجال هم المرشحون الوحيدون الذين يمكنهم التعامل مع مهام كالتسلل إلى بلد بري والتعامل مع الخارجين عن القانون وتتبع المشتبه بهم في الخفاء و البقاء مستيقظين لأيام عدة، والحفاظ على سرية هوياتهم تحت الضغط و التعامل مع الأسلحة الفتاكة إذا لزم الأمر.

بدأ وايت في تشكيل مجموعة من رعاة البقر، لكنه لم يدرج دوك إذ أن كان يُتجنب تعيينه و شقيقه منذ خدمته مع الحراس في نفس القضايا، و ذلك لحماية أسرتهم من احتمالية فقدان فرديين في آن واحد. قام وايت أولا بتجنيد الشريف السابق لنيو مكسيكو، و الذي أصبح ببلوغه الخامسة و الستين عاما أقدم عضو في الفريق و على الرغم من كونه متحفظا لدرجة الخجل، إلا أنه كان بارعًا في تولي هويات سرية، إذ تظاهر بكونه كل شيء من سارق للبقر إلى مزور. قام بعد ذلك وايت بتجنيد حارس ثرثار ممتليء الجسم و اشقر الشعر من حراس تكساس والذي وفقًا لأقوال رئيسه كان أكثر ملاءمة للقضايا التي يوجد فيها أي عنصر من عناصر الخطر. بالإضافة إلى ذلك، استعان وايت بعميل سري متمرس الذي بدا و كأنه بائع تأمين أو لربما كانت تلك مهنته السابقة بالفعل.

قرر وايت أن يحتفظ بعميل واحد من التحقيق السابق هو جون بيرجر الذي كان لديه معرفة شاملة بالقضية -من المشتبه بهم إلى آثار الأدلة- و طور شبكة واسعة من المخبرين تضمنت العديد من الخارجين عن القانون. فكان بيرجر يعمل في العلن مع وايت لكونه معروفًا بالفعل في مقاطعة الأوساج. وكذلك الأمر بالنسبة إلى فرانك سمث و هو عميل تكساسي آخر، الذي أدرج اهتماماته في مكتب هوفر على هذا النحو: "ممارسة المسدس والبندقية - لعبة الصيد الكبيرة - صيد الأسماك - تسلق الجبال - المغامرات – القبض على الرجال." و لذلك تم تصنيفه كأحد أقدم العملاء الأميين.

و أخيرا أتى وايت بجون رين الفريد من نوعه، الذي كان جاسوسًا لمرة واحدة للقادة الثوريين في المكسيك، كان رين مميزا في المكتب لكونه ذا أصل هندي أمريكي (و من المرجح من أن يكون الوحيد) كان ورين ذا شارب ملتف الطرفين عينين سوداوين ينحدر من قبيلة يوتيه التي ازدهرت بما يعرف اليوم بكولورادو و يوتاه.

كان جون ورين محققًا موهوبًا، لكن تم اجلائه مؤخرًا خارج المكتب لفشله في تقديم التقارير والوفاء باللوائح. وقال عميل خاص يتولى السلطة "إنه ماهر للغاية في التعامل مع القضايا، ولا يمكن وصف بعض أعماله الا بأنها رائعة ولكن ما جدوى العديد من الليالي والأيام من التطبيق الشاق للواجب إذا لم تتجسد النتائج في التقارير المكتوبة؟ لقد كان لديه كل المعلومات في راسه لكنه لم يلتزم بالتدوين". و في مارس من عام 1925 استعاد هوفر منصب ورين، لكن هذا بعد تحذيره له بقوله "سوف أضطر إلى طلب استقالتك إذا لم تتقيد بالمعايير السارية الآن في هذا المكتب".

عرف وايت أن ورين سوف يجلب منظورًا أساسيًا للفريق لأن بعض العملاء السابقين بمن فيهم بيرجر قد خانو هذه القضية بسبب التحامل العرضي تجاه الأوساج الذي كان شائعًا في ذلك الوقت إذ أن بيرجر وعامل آخر قد صرحا في تقرير مشترك: "إن الهنود كسالى بصفة عامة ومثيرون للشفقة و يسرفون في الشراب بجبن" وأصر زميل بيرجر على أن الطريقة الوحيدة لجعل "أي من هؤلاء الهنود الأوساج الفاسقين العنيدون يتحدثون بما يعرفونه هو قطع بدالاتهم والزج بهم في السجن إذا لزم

الأمر". فعمّق هذا الازدراء عدم ثقة الأوساجين بالوكلاء الفيدراليين وأعاق التحقيق لكن عالج ورين -الذي أشار إلى نفسه كواحد من الشجعان في مكتب هوفر- بكفاءته العديد من القضايا الحساسة في المقاطعة.

فريق وايت الذي يتضمن حارس لحدود تكساس و الذي قيل انه مناسب لأي عنصر من عناصر الخطر

اخبر وايت هوفر أي من الرجال يريد، ثم تلقى أولئك الذين لم يتم تكليفهم بعد بمكتب أوكلاهوما أوامر مشفرة عاجلة من الرئاسة: "ابدوا بالعمل بسرية و ارفعوا التقارير الى توم وايت الوكيل المسؤول " فقبض وايت بندقيته بعد أن تم جمع الفريق وانطلق كمسافر آخر في الضباب نحو مقاطعة أوساج.

إستبعاد المستحيل

تسلل الغرباء لمقاطعة الأوساج واحدا تلو الآخر حيث ظهر قائد الشرطة السابق، بمظهر رجل دين مسن هادئ من تكساس ثم ظهر الثرثار السابق لحراس تكساس، حيث قدم نفسه أيضًا كمربي أبقار. و بعد فترة ليست بالطويلة، افتتح بائع التأمين السابق أعماله التجارية في وسط مدينة فيرفاكس، ناشرا لحسن نية السياسات العامة، و أخيرًا، وصل العميل رين كرجل طب هندي مدعيا البحث عن أقربائه.

نصح وايت رجاله بالحفاظ على بساطة تخفيهم حتى لا يكشفوا أنفسهم و سرعان ما وصل ببراعة العميلان المتخفيان كمربيان للماشية إلى ويليام هيل، الذي اعتبرهما رعاة من تكساس وقدمهما إلى العديد من سكان المدينة الرائدين أما بائع التأمين فقد توقف بالعديد من منازل من المشتبه بهم بحجة سياسات التجوال.

شق العميل ويرن طرقه الخاصة، حيث حضر التجمعات القبلية جامعا للمعلومات من الأوساج الذين غالبا ما لا يتحدثون مع رجل قانون أبيض في أي وضع اخر. قال وايت لهوفر: "لقد عاش ويرن بين الهنود و نجح بذلك بشكل رائع"، مضيفًا أن رجاله السريين بدا أنهم قادرون على "تحمل صرامة الحياة".

كان من الصعب لوايت معرفة من أين يبدأ التحقيق فقد اختفت في ظروف غامضة سجلات استجواب الطبيب الشرعي عن وفاة آنا براون وكما قال قاضي العدالة و السلام في فيرفاكس "لقد تم اقتحام مكتبي واختفت الشهادة".

لم يتم الاحتفاظ عمليا بأي دليل من مختلف مسارح الجريمة، ولكن في قضية آنا، احتفظ نابش القبور سراً بعضو واحد و هو جمجمتها التي بحجم البطيخة، بدا تجويفها الخاوي خفيفا في اليد بشكل مثير للأعصاب تهب بها الرياح كأنها محارة ابيضت من أثر الشمس .

فحص وايت الجمجمة و كان باستطاعته رؤية الثقب في الخلف حيث دخلت الرصاصة و توصل الى نفس ما توصلوا اليه المحققون السابقون، وهو أنه لابد من أن الرصاصة قد اطلقت من بندقية صغيرة من عيار 32 أو ربما من مسدس38 . و لاحظ وايت أيضاً انه من الغريب عدم وجود جرح خروج في مقدمة جمجمة آنا، مما عنى أن الرصاصة قد استقرت داخل رأسها. و انه لما كان من المستحيل عدم رؤية الرصاصة أثناء تشريح الجثة، إذاً فان شخص ما في مسرح العملية -متآمر أو ربما القاتل نفسه- هو من قام بسرقتها.

اعترف قاضي الصلح بأنه قد أخفى ايضا مثل هذه الشكوك ، فتم الضغط عليه: "هل كان من الممكن أن يكون الطبيبان، ديفيد وجيمس شون، قد أخذاها؟ فأجاب "لا أعرف". و عندما تم استجواب ديفيد شون، أقر بأنه لم يكن هناك جرح خروج، لكنه أصر على أنه هو وشقيقه قد بحثا بجهد عن الرصاصة كما أقر جيمس شون بالمثل.

كان لدى وايت قناعة بأن شخصا ما قد غير من مسرح الجريمة، ولكن بالنظر إلى عدد الأشخاص الذين حضروا أثناء تشريح الجثة -بمن فيهم المحامين المحليين و نابش القبور و ماتس صاحب شركة بيق هيل التجارية- بدا من المستحيل تحديد هوية الجاني.

استقر وايت على طريقة بسيطة لكنها أنيقة لفصل الحقائق عن الإشاعات الواردة في ملفات قضايا المكتب: و هو محاولته بشكل منهجي إثبات عذر كل مشتبه به. وكما هي مقولة شارلوك هولمز الشهيرة: "عند استبعادك للمستحيل، يجب أن تكون الحقيقة هي الباقية، مهما كانت غير واردة."

فاعتمد وايت على العميل بيرجر لتوجيهه في فترة غموض التحقيقات الفيدرالية السابقة. فقد عمل العميل بيرجر على القضية لمدة عام ونصف، و لكونه العين الخفية التي عينتها عائلة هيل وماتيس ومولي فقد بحث خلال هذه الفترة عن العديد من الدلائل المماثلة. تمكن وايت من استبعاد العديد من المشتبه بهم من خلال الاعتماد على نتائج العميل بيرجر، بمن فيهم أودا براون زوج آنا السابق، الذي تمت مراجعة حجة غيابه -كان مع امرأة أخرى- و أصبح من الواضح أن الملفق الذي ورط براون قد اختلق قصته على أمل المساومة مع المدعين العامين من أجل تحسين ظروف معيشة السجن. وأدت تحقيقات إضافية إلى اقصاء مشتبه بهم آخرين، مثل عمال النفط الهمجيين الذين تم تسليط الضوء عليهم من قِبل العمدة المخلوع هارفرياس.

تحرى وايت بعد ذلك الشائعات القائلة بأن روز أوساج هي من قتلت آنا لأن آنا حاولت إغواء صديقها جو ألين (كان روز وجو متزوجان منذ ذلك الحين) و علم وايت بالافادة التي حصل عليها المحقق الخاص رقم 28 من امرأة هندية تنتمي لقبيلة كاو، عن روز التي اعترفت فيها بأنها القاتلة و رصد عميل من المكتب في تقرير ميداني "إنها لمسألة شائعة أن روز كانت تحركها نزعة من الغيرة و التصرفات العنيفة". و شارك من العملاء ايضا مشير بلدة فيرفاكس تفاصيل مقلقة و هي انه تم العثور في وقت قريب من مقتل آنا على بقعة داكنة على ظهر سيارة روز مماثلةً على حد قوله للدم .

العميل جون بيرجر

أبلغ العميل بيرجر وايت أنه اتى من قبل بروز أوساج و جو إلى مكتب العمدة للاستجواب ثم وُضع المشتبه بهما في غرفتين منفصلتين وتركا لتحريك شعورهما. أصرت روز عند استجواب العميل بيرجر لها على ان لا علاقة لها بقتل آنا و أقرت "لم يكن لدي أي شجار أو قتال مع آنا" ثم واجه العميل بيرجر جو، الذي كان وفق وصف العميل له "منذويا، متجهمًا و ذا مظهر كريه". و سأل محقق آخر جو على انفراد "هل كنت غاضبًا من آني؟" فقال "لا، أبدا لم أكن كذلك".

أعطى جو نفس العذر الذي ذكرته روز و هو انهما كانا معا في ليلة 21 مايو 1921 ، على بعد سبعة عشر ميلا في باوني جنوب غرب غراي هورس، وتوقفا عند مكان لغرف الايجار. و أيدَ صاحب غرف الايجار -الذي كان واحد من تلك الأماكن العارمة التي غالباً ما تفوح منها رائحة الجنس والخمر- إدعاءات جو وروز إلا أن المحققين لاحظوا أن القصص التي رواها روز وجو كانت شبه حرفيه، كما لو انهم قد قاموا بالتدرب عليها.

تم إطلاق سراح روز وجو، و بعد ذلك سعى العميل بيرجر للحصول على مساعدة من المخبر - كيلسي موريسون المُهرب بائع المخدرات، الذي بدا أنه مصدر مثالي للمعلومات فقد كان متزوجًا في مرة من امرأة من الأوساج، قريبًا من روز والمشتبه بهم الآخرين لكن احتاج العميل بيرجر أن يعثر على موريسون قبل أن يتمكن من تجنيده، فقد كان قد فر من مقاطعة الأوساج بعد أن اعتدى على ضابط محلي يعمل في حظر المسكرات.

استفسر بيرجر و وكلاء آخرون و علموا أن موريسون كان في دالاس تكساس، مستخدما للاسم المستعار لويد ميلر فنصبوا له فخ. إذ أن كانت لديهم رسالة مسجلة أرسلت إلى صندوق البريد مدرجة تحت اسم ميلر، فتم اعتقال موريسون عند ذهابه لسحبها. و وفقًا لما اورده الوكيل بيرجر "أجرينا مقابلة مع لويد ميلر الذي كان ينكر لمدة ساعة أنه كيلسي موريسون، لكن اعترف أخيرًا أنه هو".

كان موريسون -الذي وصفه العميل بيرجر بأنه "ماهرو متهور بطريقة غيرعادية ومعترف بإجراميته"- يرتدي كمن هو شخص نشيط في صالة رقص، طويل القامة، و ذا ندوب بسبب الرصاص و عينيين صغيرتين متوترتين، و يبدو كأنه متهالك من الداخل -ومن هنا جاء لقبه سليم أي النحيل-. وأشار العميل بيرغر في تقرير له أن موريسون "يتحدث ويدخن السجائر كثيرًا" وأيضا يشم أنفه و يحرك فمه وأنفه بشكل شبه مستمر مثل الأرانب، لاسيما عند يكون متحمسا".

أبرم الفدراليون صفقة مع موريسون و هي انه يتوجب عليه العمل في مقابل الغاء مذكرة ايقافه بتهمة الاعتداء، كمخبر في قضايا القتل في الأوساج. وقال العميل بيرجر لمقر الرئاسة "إن هذا الترتيب سري للغاية ولا يجوز الافصاح عنه خارج هذا المكتب لأي شخص تحت أي ظرف من الظروف"

كان هناك خطر يتمثل في احتمالية هرب موريسون، و لذا حرص العميل بيرجر أن يجتاز موريسون قبل إطلاق سراحه عملية صارمة معروفة باسم البيرتيلوناج و هو أسلوب مبتكر من قبل ألفونس بيرتيلون عالم الجريمة الفرنسي في عام 1879 ، إذ كانت تلك أول وسيلة علمية لتحديد المجرمين المتكررين فأخذ العميل بيرجر احدى عشر قياسا لجسد موريسون ذلك باستخدام أداة الفرجار وغيرها من الأدوات الخاصة، التي من بينها طول قدمه اليسرى طول وعرض رأسه وقطر أذنه اليمنى. أعلم العميل بيرجر موريسون بالغرض هذه القياسات، و كُلف أيضًا بعمل لقطات وجهية له، وهي ابتكار آخر من ابتكارات بيرتيلون.

كتبت إيدا تاربل الصحفية كاشفة الفضائح في عام 1894، أن أي سجين مر من خلال نظام بيرتيلون سيظل مرصودا إلى الأبد: "قد يستطيع طمس وشمه، و ضغط صدره ، و صبغ شعره ، و اقتلاع أسنانه، و تعليم جسده و اخفاء طول قامته لكن بدون جدوى".

لكن تم بالفعل استبدالها البيرتيلوناج بطريقة أكثر فعالية لتحديد الهوية أحدثت ثورة في عالم الكشف العلمي و هي البصمات. فيمكن في بعض الحالات الآن، ادراج المشتبه به في مكان الجريمة حتى بدون حضور شاهد. و أنشأ هوفر عندما أصبح المدير بالنيابة للمكتب، قسم تحديد الهوية، وهو مستودع مركزي لبصمات المجرمين المعتقلين من جميع أنحاء البلاد و كما أعلن أن مثل هذه الأساليب العلمية ستساعد "حماة الحضارة في مواجهة الاخطار المشتركة".

تحصل العميل بيرجر على بصمات موريسون مصبغة على حبر ثم أبلغ المقر الرئيسي قائلا: " لدينا في حالة وجود سبب للقبض عليه صورته و وصفه وقياساته وبصمات أصابعه "، ثم قدم بيرجر لموريسون بعض المال لإنفاقه و وعد موريسون بزيارة روز أوساج وجو ألين بالإضافة إلى أعضاء من عالم الجريمة، لمعرفة ما يمكن أن يكتشفه حول جرائم القتل. و حذر موريسون من موته المحتم إذا اكتشف أي شخص أنه يعمل لصالح الاتحاد الفيدرالي .

رفع موريسون في تقرير يتعلق بمقتل آنا أنه سأل روز "لماذا فعلتِها؟" فأجابت في مذكرة: "أنت لا تعلم أدنى شيئًا عن هذا الأمر، يا سليم ، أنا لم أقتل آنا ". هذا و قد أشار العميل بيرجر عن مخبره الثمين: "يمكنه فعل الكثير لنا إذا لم يتم تصفيته في وقت مبكر جدًا".

استعرض وايت الآن جميع المعلومات التي جمعها موريسون و العملاء بخصوص روز أوساج وجو ألين. و في ضوء تصريح روز لموريسون وحقيقة أن مالك منزل غرف الايجار أكد على ذريعة روز وجو، فإن الإفادة التي اعترفت بها روز قد بدت محيرة و كانت على وجه الخصوص واحدة من التفاصيل مثيرة للفضول فوفقًا لتقرير المرأة من قبيلة كاو الهندية عن اعتراف روز، أن آنا كانت في السيارة عندما أُطلق عليها النار، ثم أُلقيت جثتها في ثري مايل كريك، المكان الذي تخلصت فيه روز ايضا من ملابسها الملطخة بالدماء.

كانت نتائج التشريح مفيدة فقد فهم علماء الإجرام أن الدم يتخثر في أدنى نقطة من الجسم بعد الموت، مما ينتج عنه بقع داكنة على الجلد. فإذا عثر أحدهم على جثة تظهر هذه البقع فيها بالمناطق العليا ، فان هذا مؤشر على أن شخصًا ما قد نقل الجثة. لكن لم يبلغ الأطباء عن أي مؤشرات على ذلك في حادثة آنا، ، وبالنظر إلى كل أوصاف مسرح الجريمة، فإنه لم يكن هناك أثر للدماء من السيارة إلى اسفل الجدول.

إذا، يبدو أن الشاهد كان يكذب وأن روز وجو كانا بريئين و هذا من شأنه أن يفسر السبب في أن المسراق التلفوني الذي أنشأه المحققون الخاصون لعائلة مولي بوخارت لم يلتقط أي بيانات تجرّمهم قط، و تفسر ايضا عدم العثور على ملابس روز في الجدول، و لذلك عندما قام العملاء باستجواب مرأة قبيلة كاو الهندية لم يتطلب الأمر الكثير لتنهار، فإعترفت المرأة بأن روز لم تخبرها البتة بأي قصة عن القتل. بل أتى في الحقيقة رجل أبيض غريب إلى منزلها، وكتب الإفادة، ثم أجبرها على التوقيع عليها بالرغم من أنه لم يكن أي منها صحيحًا. فأدرك وايت حينها أن المتآمرين لا يقومون فقط بمسح الأدلة بل كانوا يختلقونها أيضا.

11

الرجل الثالث

بدأ هوفر فورا بمضايقة وايت لإعطائه المستجدات، ثم قام بإنتقاده عندما كان وايت يقوم بعمل ميداني و لم يستجيب على الفور قائلا: "لا أدري ماهية السبب الذي يمنعك بان تزودني بآخر التطورات و الوضع العام بنهاية كل يوم". تعاظم وتضاءل اهتمام هوفر بهذه القضية بمرور السنين لكنه أصبح قلق حيال الإنتقاد المتزايد الذي يتلقاه من اكلاهوما إذ انه كان قد بدأ بتقصي مسائل بنفسه من قبل وصول وايت، بالرغم من انه ليس ذلك الشخص الذي يغامر بالدخول في الأوساخ (إن لديه

فوبيا من الجراثيم و قد قام بتركيب جهاز تنقية خاص لتعقيم الجو بمنزله)، لكنه كان يجلس في مكتبه دارسا للتقارير الآتية من العملاء بعينيين و اذنين منصبتان على العالم المتوعد.

تحصل هوفر على ملاحظة مثيرة عندما كان يدرس تقارير جرائم قتل الأوساج و هي انه قد تم قتل كل من آنا براون و روان بطلقة في مؤخرة الرأس، ثم توصل هوفر بعد مراجعته لكل الزوايا ، إلى أن امرأة بيضاء تدعى نيسيا كيني قد تملك المفتاح لحل القضية إذ كانت متزوجة برجل من الأوساج . أخبرت كيني العملاء أن آي.دبليو كومستوك المدعي العام الذي خدم كحارس لعدد من الأوساج قد يكون جزء من المؤامرة و لم ينسى هوفر أن كومستوك كان قد انتقد المكتب و هدد بأن يقلب السيناتور كورتس ضده و هذا الشيء جعل كومستوك في نظرهوفر واش خبيث و لذلك اخبر هوفر عملائه: "أنا متأكد من انا السيدة كيني على المسار الصحيح".

آي.دبليو كومستوك مع هندي أوساجي

لكيني تاريخ من عدم الاستقرار العقلي -إذ ادعت بأنها كانت ممسوسة بأرواح- و حاولت بالفعل في مرة قتل مدعي محلي آخر و بالرغم من ذلك قام هوفر باستجوابها في واشنطون ليس فقط مرة واحدة بل مرتين واتفق مع خبير بالامراض العقلية على ان يأتي و يقيم حالتها، فخلص الطبيب بأنها مصابة بالرهاب و أشار كما عبر عنه هوفر "انها تلاحظ أشياء قد تغيب عن ملاحظة الفرد الطبيعي" فقال هوفر نتيجة لذلك أن "كيني ذات أهمية بالغة لنا في إيجاد الدلائل اكثر من كونها شاهدة"

لم يتمكن وايت من اثبات ادعاءات كيني و في نفس الوقت لم يكن يدري ما يفعله بكومستوك المسلح بمسدس البولدوغ خاصته. إن كومستوك واحد من الرجال البيض البارزين القلائل الذين لديهم الرغبة بمساعدة المحققين و قد اخبر العملاء بأنه واثق من إمكانية عثوره على دليل قاطع إذا ما صرح له بالولوج لملفات المكتب لكن رفض وايت مشاركة أي ملف سري ومع ذلك واظب كومستوك بزيارة وايت مشاركا له بأخبار مفيدة و مراقبا لتطورات التحقيق و من ثم يختفي في الشوارع مع مسدس البولدوغ اللامع خاصته .

كرس وايت جل اهتمامه بنهاية شهر يوليو من عام 1925 في آخر قائمة من المشتبه بهم وهم: براين بورخارت و صهر مولي. علم وايت أن براين قد أقر اثناء الاستجواب أنه قد أقل بنا في ليلة اختفائها من منزل ايرنست و مولي مباشرة إلى منزلها موصلا إياها في وقت ما بين 4:30 و ال 5:00 مساءا ثم اتحه نحو فيرفاكس حيث قابل هيل و ايرنيست و عمه و عمته اللذان اتياه في زيارة و ذهبا معه لمشاهدة العرض الموسيقي (تنشئة الأباء) فبدت حجة براين محكمة إذ لم يكن لبراين متسع من الوقت ليذهب الى الجدول و يقتل آنا ثم يعود إلى المدينة قبل بدأ العرض.

و لتأكيد ذلك سافر مسبقا العميل بيرجر و زميل له إلى مدينة في شمال تيكساس تدعى كامبيل التي عاش فيها عم و عمة براين. اسرع العميلان الى ما وراء المسارات القديمة التي كان يتبعها رعاة البقر من قبل و التي حلت محلها الان عربات الماشية تجرها القاطرات ذات الأصوات العالية.

اكتشف العميلان ان هيل قد ترعرع في بستان من أشجار الأيكة الذي يبعد بالقليل فقط من كامبيل. و ان امه قد توفت عندما كان بعمر الثالثة -إن ملك تلال الأوساج يحمل عبء قديم ايضا-.

توقف العميلان في كومبيل بالمنزل البسيط لعم و عمة براين، كان العم خارج المنزل لكن دعت العمة المحققين الى الداخل ثم شرعت في خوض تبجح صاخب عن كيفية زواج ايرنيست بواحدة من الهنود الأغنياء فسألها بيرجر عن الليلة التي أختفت فيها آنا فقالت: "قد سمعت الاقاويل عن ان لدى براين يد في مقتل تلك الهندية المخمورة و لكن لم يكن أي من ذاك صحيحا فبعد إيصاله لآنا، انضم براين مع بقية المجموعة في فيرفاكس". ظهر العم فجأة في مقدمة الباب مبديا استيائه من وجود إثنان من المحققين داخل منزله، و بالرغم من امتناعه عن الكلام الا انه اكد على مقابلة براين لهم في فيرفاكس بعد ايصاله لآنا و أضاف انه قضى وزوجته الليلة بعد انتهاء العرض في نفس المنزل مع براين و ان براين كان هناك طيلة الوقت فببساطة لم يكن له بأن يكون القاتل. ثم أوضح العم بعد ذلك رغبته للعملاء بأن يخرجوا من منزله.

ارسل وايت عملائه متخفين ليتسللوا الى مدينة راستون في شهر أغسطس من عام 1925، إذ ارادهم ان يتقصوا اثر دليل لم يتتبع بحق و هو ان تقارير القضية أظهرت انه كان من الممكن أن تلمح آنا في ليلة إختفائها بداخل سيارة بواسطة جماعة من الرجال البيض الجالسين قبالة فندق في شارع راستون الرئيسي. تحدث محققون سابقون ضمنهم رجال قانون محليين و آخرين متخفون مع هؤلاء الشهود القيميين ثم بدا انهم طمروا ما عرفوه و اختفى من حينها واحد على الأقل من الشاهدين فتأكد وايت من ما سجله واحد من العملاء في تقرير: مثل اؤلئك الناس " يتم الدفع لهم بواسطة المشتبهين بهم للذهاب بعيدا و البقاء بعيدا".

حاول وايت و رجاله العثور على بعض الشهود خارج الفندق بمن فيهم المزارع المسن الذي تم استجوابه سابقا بواسطة عميل. بدا ان المزارع يعاني من الخبل اثناء ذلك الاستجواب الهام، فقد كان يحملق في العميل في شرود ثم رفع رأسه بعد مدة من الزمن و كانت ذاكرته جيدة فعزا انه ببساطة أراد التأكد من ان المحققين هم من يدعون حقا فالحديث مع الشخص الخطأ عن تلك الجرائم يعرض المرء للقتل.

تحدث المزارع بعدها لوايت و رجاله، و بحسب الشهادة التي أدى المزارع القسم بعدها فإنه يتذكر تلك الليلة جيدا لانه غالبا ما كان يتحدث عنها هو و أصدقاء له الذين عادة ما يجتمعون في الفندق وقال: " نحن كبار السن لدينا متسع من الوقت في المدينة وهناك كنا نجلس" تذكر الرجل ان السيارة توقفت بالقرب من الرصيف و انه تمكن من خلال نافذتها المفتوحة من رؤية آنا التي قالت "مرحبا" و رد شخص من المجموعة بـ"مرحبا آني"

وبالرغم من عدم تحدثها اليها، إلا ان زوجة المزارع التي كانت معه في برالستون في تلك الليلة متأكدة من ان آنا هي المرأة التي في السيارة وشهدت: "كان هنالك الكثير من الهنود هنا، أحيانا اتحدث الى احدهم و أحيانا لا افعل و أحيانا أخرى قد لا يجيبون" ثم قالت عندما تم سؤالها عن ما اذا كانت آنا قد إنهارت بسبب الشراب: "كانت جالسة كما يجلس جميعهم، هكذا" ثم أجلست نفسها بطريقة منتصبة و صارمة و كأنها تمثال وكان هذا تمثيلها لهيئة الهندي الراقي و قد سؤلت في وقت ما عن اذا ماكان هنالك أي احد بمعية آنا في السيارة

"أجل يا سيدي" أجابت زوجة المزارع

"من؟"

"براين بورخارت"

قالت إن براين كان سائقا للسيارة و مرتديا قبعة رعاة البقر، و قال شاهد آخر أيضا بانه شاهد براين مع آنا في السيارة و تذكر قائلا: "اتجهوا من هنا نحو الغرب مباشرة يمينا عبر المدينة لكنني لا ادري اين ذهبوا من هناك" فكانت تلك اول ثغرة مثبتة في حجة براين اذ قد يكون قد أوصل آنا للمنزل لكنه بالتأكيد عاد ليخرج معها و كما كتب عميل في تقرير ان "حنث براين بقسمه عندما حلف قائلا بانه ترك آنا آمنة بمنزلها في وقت ما بين 4:30 و ال 5:00 مساء وكان قسمه ذاك قبل استجواب الطبيب الشرعي في فيرفاكس"

كان على وايت ان يبرهن إلى أين ذهب الاثنان بعد مغادرة رالستون، ثم كان قادرا على خلق خط زمني بعد ان جمع التفاصيل من المخبريين السابقين للعميل هوفر بالإضافة الى شاهدين عرفوا من بواسطة الفريق السري. توقف براين و آنا بحانة قريبة ومكثوا هناك حتى حوالي الساعة 10:00 مساءا و من ثم اتجها الى ملهى للقمار يبعد عدة اميال عن فيرفاكس. شوهد عم براين معه، اذا لربما ان العم كان يكذب على العميل بيرجر ليحمي ليس براين فقط بل نفسه أيضا. أخبر مالك المكان عملاء بان براين و آنا كانا يشربان هناك حتى حوالي الساعة 2:00 صباحا.

اصبح التفسير لمكان ذهاب براين و آنا بعد ذلك اكثر غموض إذ قال شاهد انهما توقفا لوحيدهما في حانة أخرى بالقرب من فيرفاكس، بينما شهد آخرون انهم شاهدوهما يغادران الحانة بصحبة رجل ثالث و الذي لم يكن العم. كتب العميل بيرجر: "قيل ان رجلاً ثالثاً كان حاضراً بصحبة آنا براون و براين بورخارت".آخر رؤية علم بها المحققيين لآنا و براين سويا كانت تقريبا عند الساعة 3:00 صباحا إذ أن شاهدة تعرف كليهما قالت بانها سمعت صوت توقف سيارة بمقربة من منزلها في فيرفاكس و ان رجلا اعتقدت بأنه براين صاح قائلا: "اوقفي حماقتك يا آني و ارجعي الى هذه السيارة".

براين بورخارت

إختفت آنا من بعد ذلك و لم يكن هناك أي أثر لها. لكن رصد جار لبراين براين و هو عائد عند شروق الشمس و اخبر براين الجار لاحقا بان لا ينبس ببنت شفة لأي شخص و من ثم أعطاه مالا ليخرسه.

توصل وايت الى مشتبه به رئيسي و لكن مع هذا الكم من الغموض فإن كل إجابة لسؤال تفتح معها سؤال اخر، ما كان دافع براين إن هو من قتل آنا ؟ و هل هو متورط بجرائم القتل الأخرى؟ و من كان الرجل الثالث؟

12

مرايا شاسعة

بدأ وايت بنهاية ذلك الصيف الشك بأن هنالك واش في داخل التحقيق، و عند استجواب واحد من عملائه لأحد المحامين ردئيى السمعة -والذي كان يحاول على حد قول أحد المخبرين عرقلة مسار التحقيق- افشى المحامي بمعلومة سرية صادمة من داخل القضية، و اعترف في النهاية "أنه قد إطلع على جزء من التقارير التي أُعدت بواسطة المكتب و انه كانت لديه الفرصة للإطلاع على المزيد منهم"

أُبتلى مكتب التحقيقات بالتسريبات و الاعمال التخريبية منذ فترة طويلة و قد اشتكى عميل قائلا: "تصل المعلومات التي في التقارير فورا الى حيازة اشخاص غير مخوليين و معدومي الضمير" و اكتشف محامٍ بالولايات المتحدة أن التقارير التي قُدمت له من المكتب قد اختفت كذلك من مكتبه. أصبحت الثغرات مهددة لحيوات العملاء و خالقة لشكوك مُضللة بسبب طعن الموظفيين في ولاء ببعضهم بعضا، و طلب احد محضري التشريح "بأن لا تسلم أي نسخة من تقاريره إلى أي مُمثل لولاية اكلاهوما"

و لربما ما كان اكثر ضررا أن حاول اثنين من العملاء السريين أحدهما من وكالة بيرن كشف هوية مخبر المكتب الرئيسي كيلسي موريسون فسرب هاذان العميلان السريان لعدد من المسوؤليين المحليين أن موريسون كان يعمل مع المكتب ثم تمادوا كثيرا بحجزهم له بتهمة سرقة ملفقة. و قال العميل بيرجر ان سلوك احد هؤلاء المحققين الخاصيين كان "يستحق التوبيخ" "و يلحق الضرر للتحقيق بكل تأكيد" ثم لاحظ ان إعاقة التحقيق هو ما بدا انه الهدف الأوحد لهؤلاء المحققين الخاصين مضيفا: "لابد من أن احد يدفع لهم المال لفعل هذا" و رفع عميل في تقرير ان بدا موريسون بعد خروجه خائفا بسبب ظرفه و توسل للعملاء في احد اجتماعاتهم بأن يقبضوا على "السفلة" الذين ارتكبوا جرائم القتل من قبل ان يتمكنوا منه و هنا قال بيرجر لموريسون محذرا: "احذر الأعداء و الفخاخ"

كان أحيانا ما يلتقي وايت برجاله في اطراف المدينة عند الليل حيث كانوا يتجمعون هناك كالهاربيين و احس العملاء سابقا بأنهم ملاحقون فاعطاهم وايت نصيحة في حال كشف تخفيهم: "حافظوا على اتزانكم و تحاشوا القيام بأي عمل عنيف إن امكن" و أضاف موضحا بانه لابد لهم من حمل الأسلحة : "لكن قاتلوا ببسالة إن كان في القتال نجاتكم"

عمدة حدود نيوميكسكيو الذي لعب دور رجل ماشية في فريق وايت

وجد وايت نفسه تائها داخل مرايا شاسعة اذ ان عمله هو اقرب للتجسس منه للتحقيق الجنائي فقد كان هنالك وشاة و عملاء مذدوجيين و من المحتمل عملاء ثلاثيين و لكن لم يثير احد الشكوك اكثر من العميل السري المدعو بايك. كان العملاء على علم بان بايك تم تعيينه بواسطة ويليام هيل في عام 1921 لحل قضية قتلى الاوساج لكنه تخلى عن القضية بعد فشله في احراز أي تقدم. وعرض ذات مرة رجل من نبلاء الاوساج نفسه للعميل بيرجر على انه وسيط لبايك و على الرغم من تخلي بايك للقضية الا ان الوسيط قال بان بايك حائز على معلومة هامة كانت قد أُكتشفت اثناء تحقيقه و هي معرفته لهوية الرجل الثالث الذي شوهد مع براين و آنا على مدار الوقت الذي قتلت فيه. كتب العميل بيرجر ان بايك على مايبدو "عرف و تحدث مع هذا الرجل الثالث" لكن أوضح الوسيط ان بايك سيشارك تلك المعلومة على شرط واحد: وهو ان تدفع جزية له. فكتب بيرجر في تقرير: "من الواضح جدا ان هنالك احتيال مدروس يجري على قدم وساق".

طالب العملاء عن طريق الوسيط بظهور بايك ، لكنه لم يمتثل مجددا عازما بوضوح على ان يبتز المال و يعرقل العدالة" فنصب العملاء كمين لبايك الذي كانت مدينة كينساس اخر عنوان عرف له و كتب العميل بيرجر: "يجب أن يحدد موقع بايك و يتم اعتقاله، فقد غير عنوان سكنه في مدينة كينساس بعد ان صار معروفا أننا نعمل للأتيان به. نحن نشعر بأننا واثقين بمن أنه تم الدفع له لكي يغادر".

و بعد مدة ليست بالطويلة، قبض على بايك بالجرم المزعوم عند إرتكابه جريمة قطع طريق في تولسا. اعطى بايك بذكاء اسم مقامر محلي و تمكن العملاء من التأكد بأن المقامر كان يشرب في أحدى الحانات مع براين و آنا في ليلة الحادي وعشرين من شهر مايو. لكن دللت تحقيقات أخرى انه غادر الى منزله مبكرا جدا على ان يكون الرجل الثالث. و بدأ مرة أخرى للعملاء بأنهم قد تم خداعهم لكنهم واصلوا في الضغط عليه و مع مرور الزمن بدأ تارة فتارة بإظهار بُعد خفي في القضية فقد كَشف أنه لم يتم تعيينه في الواقع لحل قضية مقتل آنا براون، بل في طلب منه في الحقيقة إخفاء مكان تواجد براين في ليلة حدوث الجريمة.

أخبر بايك العملاء بأنه كان يتوجب عليه صنع دلائل والإتيان بشاهديين مزورين -لخلق حجة- كما سماها و إدعى علاوة على ذلك بأن أوامره كانت تأتي مباشرة من ويليام هيل. أوضح بايك أن هيل حرص على عدم الذكر بصريح العبارة أن براين كان متورطا في مقتل آنا. و لكن كان هذا جلي في ما كان يطلبه هيل منه ان يفعله. إذا كان بايك يقول الحقيقة فهذا يعني

أن هيل -النموذج المثالي للنظام و القانون و الذي جعل من نفسه مدافعا مخلصا لمولي بورخارت- قد كان يكذب طوال تلك السنين بخصوص مقتل آنا لكن لم يتمكن بايك من إجابة اكثر ما يود وايت معرفته وهو: هل كان هيل يحمي براين فقط ، ام انه كان متورطا في خطة معقدة و شنيعة اكثر من ذلك؟

أخبر بايك العملاء شيئا مروعا أخيرا، و هو انه كان أحيانا يوجد عند مقابلته لهيل و براين، شخص آخر معهم هو إيرنيست بورخارت. و اضاف بايك ان إيرنيست كان حريصا على ان لا "يناقش هذه القضية أبدا أو يجادل فيها معه في وجود مولي بورخارت."

13

ابن الشانق

كان توم وايت مجرد صبي عند مشاهدته شنق مجرم لأول مرة، و قد كان الشانق والده. انتخب والده روبيرت ايميت في عام 1888 عمدة لمقاطعة ترافيس بولاية تكساس و التي شملت اوستن و مدينة بها اقل من خمسة عشر ألاف من المواطنين. كان ايميت كما يحب والد توم أن يدعى، رجلا ضخم الجثة ذو شارب كثيف فقير و صارم و ورع مُجد في عمله. وهاجر وايت بعمر الثامنة عشر في عام 1870 من تينيسيي الى الحدود التي لازالت قفر في أواسط تيكساس و تزوج بعد اربع سنين ماغي أم توم و من ثم عاشوا في كوخ بتل مهجور ضواحي اوستن حيث رعوا الماشية و نبشوا الأرض بحثا عن قوت قد يعيينهم. كان توم الذي ولد في عام 1881 ثالث خمسة من أطفالهم و الذي من بينهم اصغرهم دوك ودودلي ذي الكدمات شقيق توم و الذي كان ذا علاقة وطيدة معه على وجه الخصوص.

كانت تبعد اقرب مدرسة داخلية -و التي تحتوي على غرفة واحدة و معلم واحد لثمانية فصول- ثلاث اميال و كان يتوجب على توم و اشقائه الترجل للوصول الى هناك. تُوفت على ما يبدو والدته بمضاعفات ما بعد الولادة و كان هو في السادسة من عمره و دفنت جثتها بمكان كان بإستطاعة وايت ان يراقب فيه العشب ينمو من حولها و بذلك تُرك ايميت ليربي توم و اشقائه كلهم مادون سن العاشرة. و ميز كتاب ملفات شخصية من القرن التاسع التكساسيين قائلا عن إيميت: "انتمى السيد وايت للطبقة الصارمة و الاصيلة من المزارعيين الذين كانت مقاطعة ترافيس تتباهى بهم...كان ذائع الصيت في المقاطعة و للناس ثقة عمياء بقدرته و استقامة شخصه." و ترجى في عام 1888 جَمْعٌ من سكان المدينة ايميت أن يرشح نفسه عمدة للمقاطعة التي فاز بإنتخاباتها بسهولة تامة و من ثم اصبح والد توم رجل السلطة.

توم (واقف على اليسار) و إخوته بمن فيهم دوك (على الحمار) و دودلي (أقصى اليمين)

و لكون لإيميت العمدة فإنه كان مسوؤلا عن سجن المقاطعة بأوستن فإنتقل بمعية اطفاله الى منزل مجاور لذلك المبنى. كان السجن اشبه بالقلعة بقضبان نوافذه و ممراته الباردة و زنازينه المتهالكة. احتوى السجن في عام ايميت الأول ما يقارب الثلاثة آلاف سجين من ضمنهم أربعة قتلة و ستة و خمسين لصا و اثنين من مفتعلي الحرائق واربعة و عشرين من السارقين و مزوران اثنان و خمسة مغتصبين و أربعة و عشرين سجينا صنفوا كمجانين. و استحضر وايت لاحقا : "لقد نشأت حقا بمحاذاة السجن إذ كان باستطاعتي النظر من نافذة غرفة نومي و رؤية رواق السجن و الأبواب المؤدية لبعض من الزنزانات"

بدا يتجلى السجن لوايت كالكتاب المقدس امام ناظريه بوجود الجيد و السيء و الخلاص و الخطيئة. اندلع في مرة عراك في السجن فحاول وايت بكونه العمدة قمع الشغب بينما هرع اطفاله لمحكمة مجاورة طلبا للمساعدة و نشرت جريدة اوستن ويكلي ستيتمان قصة عن الحادثة تحت عنوان: **دماء دماء دماء: سجن المقاطعة يتحول الى حظيرة ذبح حقيقية.** و وصف المراسل الصحفي المنظر الذي لقيه الصبي توم : " يشاهد الكاتب بممارسته عمل الصحافة الكثير من المناظر المقززة المليئة بالدماء لكن لم يتخطَ أحد منها قط المنظر الفريد الذي لقيته عيناه عند دخوله سجن المقاطعة في عشية أمس حوالي الساعة الخامسة و النصف اذ انه لم يكن هناك شيء يراه عدا الدماء أينما اتجه."

أصبح إيميت بعد الحادثة التي تأذى فيها خمسة من الرجال أذية بالغة عمدةً قاسياً و عنيداً أيضا، لكن كان مازال يبدي اهتماماً بالغاً اتجاه الأشخاص في عهدته و يصر على القيام بالاعتقالات من غير التلويح بمسدسه و لم يتفلسف ابدا حول القانون واتجاه مسوؤلياته و لاحظ توم ان والده دائما ما يحافظ على نفس الأسلوب أيا كان السجناء سود او بيض او مكسيكيين. و كانت تجري في ذلك الوقت الاعدامات التي خارج نطاق القانون خصوصا التي تقام للسود في الجنوب و تعد تلك من اعظم الإخفاقات الفاضحة لنظام القانون الأمريكي. فكان يهرع ايميت موقفا للمحليين في حال سماعه ان في نيتهم رجم بشخص من حزب ربطة العنق و كتب صحفي ناقلا عن ايميت في احد القضايا: "ستكون هنالك نتائج لا تحمد عقباها إذا حاول حشد ما الإمساك بالزنوج".

رفض ايميت ان يضع السجناء الصغار غير العنيفين في السجن جنبا الى جنب مع الكبار و الأكثر خطرا فتركهم يمكثون في منزله يعيشون مع اطفاله بسبب انه لم يكن هناك أي مكان بالسجن و ظلت معهم فتاة لأسابيع متتالية لكن لم يعرف ابدا توم سبب وجودها في السجن و لم يناقش والده ذلك البتة.

لطالما احتار وايت حول السبب الي جعل المجرمين يفعلون ما فعلوا. بدا بعض من سجناء السجن سيئيين بكل ما تحمل الكلمة من معنى و كأنما ولد بداخلهم الشيطان، و بعض آخر بدا و كأن بعقولهم خطب ما إذ يرون أشياء ليست بمقدور غيرهم رؤيتها و لكن سيق الكثير من السجناء لإرتكاب أفعال طائشة -غالبا ما تكون عنيفة و مهينة- و من ثم اصبحوا بعدها على ما فعلوا نادمين يرجون الخلاص، ومن نواح عدة فإن هؤلاء السجناء هم من يخيفون اكثر إذ انهم برهنوا على ان الخبث قد يتمكن من أي شخص. حضر توم مع عائلته كنيسة مُعمدٍ محلي قال فيها المبشر ان كل شخص آثم -حتى ايميت مطبق العدالة- . كانت تلك ألغاز من الممكن ان لا يحلها وايت ابدا بالرغم من انه بدا قاضٍ اكثر حياته و هو يحاول.

راقب توم والده ايميت وهو يعمل كل ساعات اليوم بما فيها أيام الأحد إذ كان باسلا في امساك الرجال. كان علم الجريمة لايزال بدائيا إذ ان ايميت كان يقبض بمسدسه و يستطلع أي شاهد على الجريمة ثم يمتطي حصانه و يذهب في مطاردة محتفظا أيضا بمجموعة من الكلاب البوليسية التي كان أحيانا ما ينشرها اثناء المطاردة .

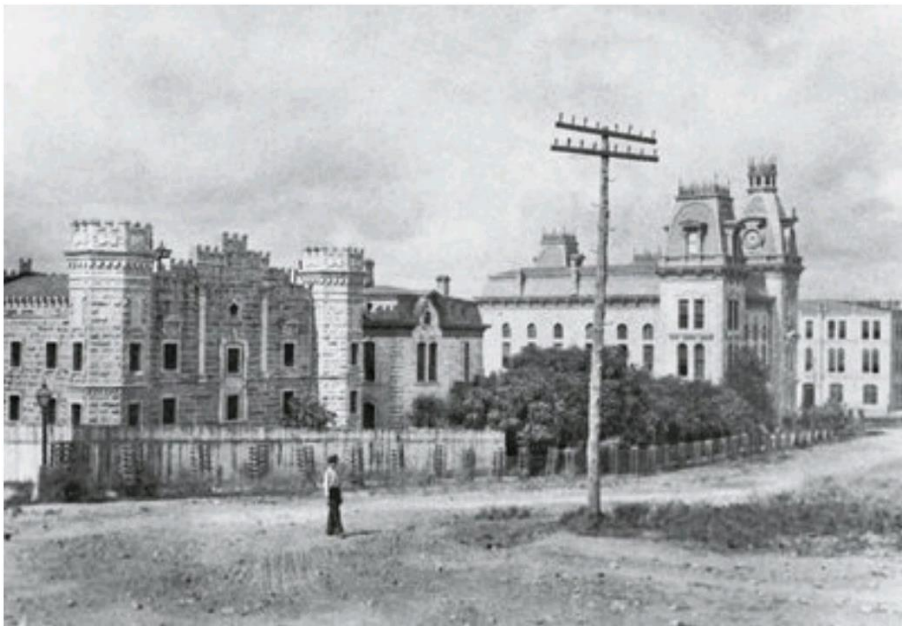

والد توم و هو يراقب سجن المقاطعة بأوستين

هرع والد توم مع كلابه البوليسية في يوم مصيف من عام 1892 عندما كان توم في سن الحادية عشر، إذ أن رجلاً من العائلة قد تم اطلاق الرصاص عليه بينما هو ممتطي لحصانه. لاحظ والد توم ان هنالك بقعة ممرغة من الأرض تبعد ثلاثين نقطة من مرقد الضحية و بها حرق ذخيرة محشوة فتيقن توم انه المكان الذي وقف فيه القاتل فأطلق وايت كلابه فتقصوا اثر القاتل و الذي قاد بكل غرابة الى منزل الرجل القتيل و علم العمدة وايت حين جمع الحقائق من الشهود أن قاتل الضحية ما هو الا ابنه نفسه.

و بعد عدة أسابيع استبسل مرة أخرى وايت في مطاردة لمغتصب هذه المرة و كتب عنوان في صحيفة ستيتمان "اغتصاب في وضح النهار...اجترار السيدة د.ك ايفانز من بوجيتها و الإعتداء عليها بوحشية و اهانتها- وسعى الضباط على قدم و ساق لإعتقال الحقير الوحشي". لكن استعصى القبض على المغتصب بالرغم من المطاردة المضنية له و في حالات مشابهة لتلك كان وايت ينصرف لنفسه حسرة كما لو انه مُعذب بسبب مرض خبيث أصابه و في مرة و قبل اعتقال احد الفاريين لاحظ

مراسل صحفي كاتبا "الحقيقة تقال ان العمدة وايت كان يفكر ليلا و نهارا في الرجل لدرجة ان اعتقاله اصبح جزءا لا يتجزأ من هيمنة وايت".

كان على وايت ان يعيش في عدم يقين مرعب -في كل مرة يخرج فيها العمدة و تنبح بها الكلاب البوليسية- من عدم عودة والده البتة إذ قد يختفي من هذا العالم حاله كحال والدة توم. وبالرغم انه يتوجب عليك امتلاك الكثير من الشجاعة و القوة للمخاطرة بحياتك في سبيل حماية المجتمع لكن و على الأقل من وجهة نظر فإن نكران الذات هذا يتضمن مقدارا ضئيلا من القسوة اتجاه من تحب.

وضع في مرة مجرم خارج عن القانون المسدس في رأس ايميت و بطريقة ما تمكن ايميت من انتزاع السلاح و في مرة أخرى استل سجين في السجن سكينا و طعن والد توم الذي كان على مرأى من السكين و هي بارزة في ظهر والده و الدم متدفق على الأرض و كم كان من المثير مقدار الدم الذي بجسم الأنسان، بجسم والده.

حاول السجين لف السكين و عندما بدأ على والد توم اليأس، قام فجأة بغرز أصبعه في عين السجين مما جعل العين تخرج و تتدلى من تجويفها و كان بإستطاعة توم رؤية ذلك. غلب والده السجين بالفعل لكن كان على وايت ان يحيا بذلك المشهد طيلة حياته إذ كيف يمكن لأحد نسيان شخص آثم حاول قتل والده؟

تمت اول عملية شنق شهدها توم في شهر يناير من عام 1894، فقد ادين إيد نيكولز وهو رجل اسود بعمر التاسعة عشر بإغتصاب فتاة و حكم عليه "بالإعدام شنقا حتى الموت" و وقع واجب تنفيذ الإعدام الذي لم يكن قد حدث سابقا على كاهل العمدة فإستأجر والد توم نجارا لبناء المشنقة بالقرب من البوابة الجنوبية للسجن المكان الوحيد الذي به سقف بعلو كاف و كان هذا الموقع على بعد عشرة اقدام من زنزانة نيكولز. كان الرجل المدان -الذي ثبت على براءة نفسه آملا في إعطائه مهلة من الحاكم- على مسمع من نشر و تثبيت الواح الخشب مرارا و تكرارا مع الاهتزاز السريع للأرض و كان والد توم مصمما على جعل الإعدام سريعا رحيما فجرب بشكل متواصل الجهاز بمجرد اكتماله مستخدما اكياسا من الرمال.

رفض الحاكم الاستئناف الأخير لنيكولا قائلا "فلتأخذ العدالة مجراها" و اطلع والد توم نيكولاس -الذي كان في زنزانته خاشعا في صلاته- بالخبر. حاول نيكولاس البقاء هادئا لكن بدأت يداه بالإرتجاف و قال انه يرغب بأن يكون حليق الذقن مرتديا معطفا اسود أنيق للقائه مع الموت و وعد والد توم بإحترام رغبته.

جلس توم ذو الإثني عشر ربيعا في يوم الإعدام على مقعد بداخل السجن و لم يتم انتهاره من قبل أي شخص ولا حتى والده و كان بإستطاعته رؤية نيكولاس الذي كان مرتد لبدلته الجديدة و مقاد من قبل والد توم الى السقالة و الوقت يَعد كل خطوة و كل نفس. حينما استمع توم، كان القسيس يقرأ إفادة نيكولاس الاخيرة: "لقد كان بالفعل العمدة وايت منصفا لي، اشعر بأني مستعد للقاء الموت فلترقد روحي بسلام مع سائر البشر" ثم تلا القسيس بعد ذلك كلماته المقدسة: "فلينقلب ايد نيكولاس إلى دار الخلود، إن ملك الموت على جواده الأسود لكنه ليس ببعيد آت للقبض على روح هذا الرجل ليواجه المحاكمة العليا حيث الرب نفسه هو الحاكم الأعلى و المسيح ابنه المحام و القدس مدعي عام".

سمع توم عند إنتهاء القسيس صوتا مألوفا إذ كان صوت والده و هو يقرأ أمر الإعدام و العقدة تُلف حول رقبة نيكولاس و قلنسوة سوداء توضع فوق رأسه. لم يكن بإستطاعة توم رؤية رأسه بعد ذلك لكن كان بإستطاعته رؤية والده و هو ممسك لمقبض الرافعة و أطلق بعد دقيقتين من الساعة الرابعة عصرا المقبض و وقع الجسد من قبل أن يتهتز بعنف للأعلى و من ثم شاع من الحضور صوت ذهول و رعب إذ أن بعد كل التشييد الدقيق للمشنقة كان نيكولاس لازال يتحرك و ينبض بالحياة. تذكر توم قائلا: "كان يركل و يرتعش لفترة طويلة من الزمن" و توقف جسمه أخيرا من الحراك و تم قطعه من الحبل.

كبر توم معارضا على ما كان يسمى أحيانا في ذاك الوقت ب"القتل القضائي" و لذلك ربما لانه شاهد ذاك الإعدام و إعدامات غيره او ربما لأنه رأى أثر البلاء على والده او ربما لأنه خشى من ان يدين النظام رجلا بريئا. و اتى عليه زمان شهد فيه العدالة لقمع الرغبات العنيفة ليس فقط في نفوس الاخرين و لكن في نفسه أيضا.

انضم توم في عام 1809 عندما كان بعمر الخامسة و العشرين لقوات حراس تكساس التي نشأت في القرن التاسع عشر كمليشيا من المواطنيين المتطوعيين لمحاربة الهنود الامريكان على الحدود و لاحقا المكسيكيين على طول الحدود ثم تطور الحراس ليصيروا إلى حد ما قوات شرطة الولاية. طال إزدراء الهنود الامريكان و المكسيكيين للحراس لقسوتهم و اتباعهم لمنهجيات "إطلاق النار أولا" و لكنهم اصبحوا مقدسيين مع وجود التكساسيين البيض و كما قال ليوندون بي.جونسون عن ذلك لاحقا: "كان يسيل لعاب كل صبي في المدرسة في تيكساس لسماع قصص عن حراس تيكساس و لم اكن انا باستثناء من ذلك."

فُتن دودلي شقيق توم بلغز الحراس حاله كحال أخيه، و دخل الى القوات في نفس العام كتوم و انضم إليهم دوك في وقت قصير و لاحقا تبعهم كاولي شقيق توم حازيا و متبعا اكثر لخطى ابيه بأن عيين عمدة لمقاطعة ترافيس. تذكر دوك نصيحة بسيطة أعطاها إياها والده حال أصبح رجل قانون: "اجمع من الدلائل ما تستطيع يا بني ثم ضع نفسك في مكان المجرم و فكر و سد تلك الثغرات يا بني."

تحصل توم كدوك و دودلي -اللذان وُضعا في فرق حراس مختلفة- على راتب ضئيل يقدر ب40$ في الشهر وكما قال عنه "هو راتب راع الابقار نفسه". و انضم توم لفريقه في مخيم يبعد 65 ميلا في غرب أبلين و لاحظ حارس آخر حال وصوله للمخيم :

"هنا مشهد مساو لقلم رصاص إذ كان الرجال -ذوو اللحى و الشوارب الطويلة المقسمون في مجموعات و المرتدون لشتى اشكال الملابس مع استثناء واحد: القبعة المحدبة التي هي زي حراس تيكساس المميز مع حزام للمسدسات حول خواصرهم- مشغولين بتجفيف أغطيتهم و تنظيف و اصلاح مسدساتهم و بعضهم وظفوا للطبخ لكن على نيران مختلفة بينما كان آخرون يتلاطفون مع احصنتهم و ذاك مشهد أصعب لم نشاهده ابدا".

تعلم توم بأن يصير رجل قانون بحزوه حزو اكثر الضباط مهارة فإن لاحظت جيدا و ان لم تكن منشغلا بشرب الخمر او فعل الفاحشة (التي كان الكثير من الحراس يمارسونهما) فإنه يمكنك تعلم كيف تتقصى أثر حصان من خلال ذيله الطويل -حتى وان كان كما اكتشف توم من قبل ان السارقين حولوا بدهاء حدوات الحصان بالاتجاه المعاكس- و أن تلتقط حيل صغيرة مثل قلب حذاءك كل صباح في حال ان عقرب او أي مخلوق قد تسلل الى الداخل و ان تنفض لحافك طردا للأفعى المجلجلة من قبل ان تستلقي في المساء و تكتشف كيفية تجنب الرمال المتحركة و كيفية تحديد مواقع جداول المياه في مناطق جافة أخرى و تفهم انه كان من الأفضل امتطاء جواد اسود و ارتداء ملابس سوداء كتجسيد للشر فلا تكون مراقب في الليل من قبل شخص مسلح. و سرعان ما تلقى توم الأوامر لواحدة من اولى مهماته وهي أن يصاحب رئيسه و رقيبه في مطاردة لسارقي بقر في إقليم كينت شمال أبيلين. ربط توم و الرقيب احصنتهم و توقفوا عند نقطة ما في محل للتزود بالمؤن، و بينما كانوا يتجهون نحو الداخل سأل الرقيب توم من مكان مسدسه فأخبره توم بأنه في غمد خنجره الذي في الحصان فصاح الرقيب ذو الطبع الانفعالي "لا تفعل ذلك ابدا فلتذهب و تأتي بمسدسك فورا الى هنا و احتفظ به معك دائما"

يوجد في الصف الخلفي و من اليسار إلى اليمين اشقاء تو م و هم دوك و دودلي و كاولي. أما في الصف الأمامي فوالد توم و جده و من ثم توم

مجموعة من رجال القانون التيكساسيين و التي تتضمنلاتوم وايت (رقم 12) و أشقاءه الثلاث دوك (رقم 6) و دودلي (رقم 7) و و كاولي (رقم 13)

عوقب توم عند استرداد مسدسه و لم يمضِ الكثير حتى فهم سبب إلحاح الرقيب إذ انهم اصبحوا ملاحقين من قبل السارقين و كان عليهم تفادي الإصابة بالرصاص عدة مرات من قبل ان يتمكنوا أخيرا من اعتقال العصابة.

أصبحت مهارات توم في ازدياد بالتعامل مع ما اسماه "الاحتيال" مثل سارقي البقر و سارقي الاحصنة ومفتعلي الشغب و القواديين و مهربوا الخمر و ناهبوا المركبات التي تجرها الخيول و الخوارج و المتجاوزين الآخرين. وكتب قس إلى رئيس

وايت عندما تم ارساله مع حارس آخر لضبط باوي المدينة الفوضوية قائلا انه قد شهد "ان قد تلاشت الفوضوى تماما بمدينتنا بفعل الحارسان الاثنان اللذان ارسلتهما الى هنا".

حقق توم مع العديد من القتلة اثناء فترة عمله كحارس و قال دوك شقيق توم: "لم يكن لدينا شيء ليس حتى بصمات فكان علينا غالبا استخدام الشهود الذين ما يستصعب العثور عليهم احيانا". و ما كان يثير المشاكل اكثر ان لم يكن يتحلى بعض الحراس بالصبر على جماليات النظام فكان عضو في فريق توم يبحث عن اكثر رجل سيء و شرس بالمدينة لإفتعال شجار معه ليتمكن من قتله و اخبر لاحقا توم -الذي يؤمن و يقول بأن رجل القانون بإمكانه في الغالب تجنب القتل اذا لم يخسر رأسه- كاتبا ان كانت له نقاشات حادة مع ذلك الحارس إذ لم يبدو صائبا ان يلعب أي رجل دور القاضي و المحلف و رجل الإعدام.

إلتقى توم في عام 1908 بفتاة شابة تدعى بيسي باترسون و ذلك عندما تم تعيينه في مدينة غرب أبلين تدعي ويزرفور. كانت بيسي صغيرة الحجم مبقربته على الأقل تمتلك شعر بنيا قصيرا وعينين لطيفتين ففتن بها توم الذي قضى الكثير من وقته في موسسة ذكورية .و بينما كان هو رجل يتسم بالهدوء كانت هي امرأة صريحة و مفعمة بالمشاعر تأمره بطريقة تجرأ على فعلها القليل لكن لم يبدو عليه الممناعة بذلك فلأول مرة لم يكن على عاتقه إمرة من حوله او السيطرة على المشاعر التي بداخله و مع ذلك كان عمله لا يتوافق مع الزواج إذ قال رئيس دوك في مرة "الضابط الذي يقبض على المجرمين لا شأن له بامتلاك زوجة و عائلة" فتم سحب توم منها منذ وقت طويل.

فأُرسل مع ان.بي توماس الحارس الذي كان واحد من أقرب أصدقاء توم ليتعامل مع مجموعة مزعجة من المحتالين باماريو في رقعة من ولاية تيكساس فقد أطلع حارس في تقرير أن المدينة احتوت على أصعب المحتالين و أن مكتب العمدة لم يمد أي يدا للعون في إزالتهم" وقال الحارس زيادة على ذلك "أن لدى العمدة ابنان يعيشان في منزل للدعارة"

خاض توماس مسبقا العديد من الإحتدادات مع العمدة و في أحد صباحات شهر يناير من عام 1909 كان ان.بي توماس جالسا على مكتبه عندما صوب العمدة مسدسه و أصابه في وجهه. وقع توماس إلى الامام و الدماء مندفعة من فمه و كان لازال يتنفس عندما وصل المسعفين لكنهم لم يتمكنوا من إيقاف النزيف و مات بعذاب مبرح.

لقي الكثير من من عمل معهم توم حتفهم في زمان سابق لأوانهم إذ شاهد توم كل من قليلي الخبرة و المتمرسين يموتون و شاهد الضباط المتهوريين يموتون و أيضا الحذرين أصحاب الضمير. أُردي راوندتري الحارس الذي صار عمدة برصاصة في رأسه بواسطة مالك أرض غني و انضم الحارس الذي تجادل معه توم إلى قوات حذرة قليلة العدد و تمت إصابته و إرداءه عَرضا من قِبل أحد رجاله.

تمت إصابة رقيب توم ست مرات بواسطة أحد المعتديين بينما أصيب أحد المارة مرتين و عندما استلقى الرقيب نازفا طلب قصاصة من ورق و دون فيها رسالة لرئاسة الحراس: "أُرديت و قُطعت إلى أشلاء. كل شيء هاديء الأن" و بطريقة ما شفى الرقيب من جراحه لكن توفى المار البريء.

ثم أتى بعد ذلك وقت أصيب فيه موظف جديد بفريق توم اثناء محاولته إيقاف هجوم فجمع توم شتات جسد الحارس و اوصله إلى منزل والديه اللذان لم يتسوعبا سبب وجود ابنيهما في صندوق إسعاف لليرقات.

شعر توم بالفوضى في داخله بعد وفاة ان.بي توماس و قال صديق لتوم كتب مسودة قصيرة عنه : "كانت معاناة توم النفسية موجزة و لكن عنيفه هل يجب عليه أن ... ينتقم من مقتل توماس؟" قرر توم أن يترك الحراس تماما و أن يتزوج بيسي فكتب القائد العام لرئيس توم قائلا: "أثبت توم بأنه ضابط ممتاز" و انه لسوف يأسف على رؤيته تاركا للخدمة. لكن قراره لا رجعة فيه و استقر هو و بيسي في سان أنطونيو حيث ولد أول ابنين لهما.

أصبح توم مفتش سكك حديد و جعل الأجر الثابت الأمر ممكنا لبناء عائلة كريمة لكن بالرغم من انه لازال يطارد قطاع الطرق وهو ممطيء للحصان، الا أن العمل أصبح بصورة عامة اقل خطورة إذ إحتوت الكثير من القضايا على كشف افراد أرسلوا دعاوي كاذبة للتعويض فوجد توم هؤلاء الناس جبناء وهم بذلك وضيعون أكثر من الخوارج الذين يخاطرون بحياتهم لإيقاف قطار.

كان توم رجلا مخلصا لعائلته لكنه ينجذب حاله كحال والده للغموض، فأدى القسم في عام 1917 على أن يصبح عميلا خاصا في مكتب التحقيقات و أقسم: "سوف أعيين و ادافع عن دستور الولايات المتحدة ضد كل الأعداء...فأعنِ يا الله".

خرج دودلي شقيق توم في يونيو من عام 1918 -بعد مدة ليست بطويلة من إنضمام توم للمكتب- مع حارس آخر لإعتقال اثنان من الفاريين في منطقة نائية كثيفة بغرب تيكساس معروفة باسم "الدغل الكبير" و كان ذلك اثناء فترة جفاف حاد و كان دودلي و شريكه يبحثان في وسط الغبار و الحرارة عن بيت من ألواح الشجر الذي أُعتقد أن الرجلين المطلوبين مختبئين فيه لكن لم يكن المشتبهان بهما هناك فقرر دودلي و شريكه الانتظار على الشرفة و عند الثالثة صباحا اشتعل فجاة ظلام الليل بإطلاق الرصاص إذ ان الفاريين قد نصبوا كمين لهما فأصيب مرتيين شريك دودلي الذي شاهد دودلي بينما هو مستلق عند الشرفة ينزف دما يُطلق الرصاص من مسدسه ذي الست طلقات و من ثم بدأ دودلي بالسقوط و كأن شخصا ما قد قام ببتر ساقيه و ارتطم جسده الضخم نحو الشرفة و استرجع شريكه لاحقا: "سقط و لم ينهض مجددا" إذ أن رصاصة اصابت دودلي بمقربة من القلب.

دودلي شقيق توم

قُهر توم بالخبر لأن شقيقه -الذي كان متزوجا و لديه ثلاثة أطفال تحت سن الثامنة- بدأ له متعذرٌ إيذائه. تم القبض و رفع دعوى قتل على الفاران و حضر والد توم كل يوم من المحاكمة إلا ان ثبتت ادانتهما.

تم ارسال جثة دودلي بعد مقتله إلى منزله و ذكر تقرير سريري للحراس "أُستخدم في شحن جسد الحارس وايت غطاء عربة و ملاءة سرير و وسادة" و استرد توم و عائلته ممتلكات دودلي بما فيها الرصاصة ناعمة الرأس ذات الغطاء الفولاذي التي أودت به و تم دفنه في مقابر بالقرب من المزرعة التي ولد فيها و كما قال الكتاب المقدس "إنك من غبار و انك لعائد إليه". و قُرأ نصب عمودي على مقبرته كالاتي:

السيد جون دودلي وايت

الهيئة الرئيسية لحراس تيكساس

قُتل اثناء أداء الواجب

12يوليو 1918

و بدأ أخيرا بعد إسبوعين من المأتم هطول مطر بارد غاسلاً للمرعى و كان توم قد رجع في ذلك الوقت إلى مكتب التحقيقات.

1 DEPARTMENT OF EASY VIRTUE

One day in the summer of 1925, Tom White, the special agent in charge of the Bureau of Investigation's field office in Houston, received an urgent order from headquarters in Washington, D.C. The new boss man, J. Edgar Hoover, asked to speak to him right away—in person. White quickly packed. Hoover demanded that his staff wear dark suits and sober neckties and black shoes polished to a gloss. He wanted his agents to be a specific American type: Caucasian, lawyerly, professional. Every day, he seemed to issue a new directive—a new Thou Shall Not—and White put on his big cowboy hat with an air of defiance.

He bade his wife and two young boys good-bye and boarded a train the way he had years earlier when he served as a railroad detective, riding from station to station in pursuit of criminals. Now he wasn't chasing anything but his own fate. When he arrived in the nation's capital, he made his way through the noise and lights to headquarters. He'd been told that Hoover had an "important message" for him, but he had no idea what it was.

White was an old-style lawman. He had served in the Texas Rangers near the turn of the century, and he had spent much of his life roaming on horseback across the southwestern frontier, a Winchester rifle or a pearl-handled six-shooter in hand, tracking fugitives and murderers and stickup men. He was six feet four and had the sinewy limbs and the eerie composure of a gunslinger. Even when dressed in a stiff suit, like a door-to-door salesman, he seemed to have sprung from a mythic age. Years later, a bureau

agent who had worked for White wrote that he was "as God-fearing as the mighty defenders of the Alamo," adding, "He was an impressive sight in his large, suede Stetson, and a plumb-line running from head to heel would touch every part of the rear of his body. He had a majestic tread, as soft and silent as a cat. He talked like he looked and shot—right on target. He commanded the utmost in respect and scared the daylights out of young Easterners like me who looked upon him with a mixed feeling of reverence and fear, albeit if one looked intently enough into his steel-gray eyes he could see a kindly and understanding gleam."

White had joined the Bureau of Investigation in 1917. He had wanted to enlist in the army, to fight in World War I, but he had been barred because of a recent surgery. Becoming a special agent was his way of serving his country, he said. But that was only part of it. Truth was, he knew that the tribe of old frontier lawmen to which he belonged was vanishing. Though he wasn't yet forty, he was in danger of becoming a relic in a Wild West traveling show, living but dead.

Tom White Credit 34

President Theodore Roosevelt had created the bureau in 1908, hoping to fill the void in federal law enforcement. (Because of lingering opposition to a national police force, Roosevelt's attorney general had acted without legislative approval, leading one congressman to label the new organization a "bureaucratic bastard.") When White entered the bureau, it still had only a few hundred agents and only a smattering of field offices. Its jurisdiction over crimes was limited, and agents handled a hodgepodge of cases: they investigated antitrust and banking violations; the interstate shipment of stolen cars, contraceptives, prizefighting films, and smutty books; escapes by federal prisoners; and crimes committed on Indian reservations.

Like other agents, White was supposed to be strictly a fact-

gatherer. “In those days we had no power of arrest,” White later recalled. Agents were also not authorized to carry guns. White had seen plenty of lawmen killed on the frontier, and though he didn’t talk much about these deaths, they had nearly caused him to abandon his calling. He didn’t want to leave this world for some posthumous glory. Dead was dead. And so when he was on a dangerous bureau assignment, he sometimes tucked a six-shooter in his belt. To heck with the Thou Shall Nots.

His younger brother J. C. “Doc” White was also a former Texas Ranger who had joined the bureau. A gruff, hard-drinking man who often carried a bone-handled six-shooter and, for good measure, a knife slipped into his leather boot, he was brasher than Tom—“rough and ready,” as a relative described him. The White brothers were part of a small contingent of frontier lawmen who were known inside the bureau as the Cowboys.

Tom White had no formal training as a law-enforcement officer, and he struggled to master new scientific methods, such as decoding the mystifying whorls and loops of fingerprints. Yet he had been upholding the law since he was a young man, and he had honed his skills as an investigator—the ability to discern underlying patterns and turn a scattering of facts into a taut narrative. Despite his sensitivity to danger, he had experienced wild gunfights, but unlike his brother Doc—who, as one agent said, had a “bullet-spattered career”—Tom had an almost perverse habit o f *not* wanting to shoot, and he was proud of the fact that he’d never put anyone into the ground. It was as if he were afraid of his own dark instincts. There was a thin line, he felt, between a good man and a bad one.

Tom White had witnessed many of his colleagues at the bureau cross that line. During the Harding administration, in the early 1920s, the Justice Department had been packed with political

cronies and unscrupulous officials, among them the head of the bureau: William Burns, the infamous private eye. After being appointed director, in 1921, Burns had bent laws and hired crooked agents, including a confidence man who peddled protection and pardons to members of the underworld. The Department of Justice had become known as the Department of Easy Virtue.

In 1924, after a congressional committee revealed that the oil baron Harry Sinclair had bribed the secretary of the interior Albert Fall to drill in the Teapot Dome federal petroleum reserve—the name that would forever be associated with the scandal—the ensuing investigation lay bare just how rotten the system of justice was in the United States. When Congress began looking into the Justice Department, Burns and the attorney general used all their power, all the tools of law enforcement, to thwart the inquiry and obstruct justice. Members of Congress were shadowed. Their offices were broken in to and their phones tapped. One senator denounced the various "illegal plots, counterplots, espionage, decoys, dictographs" that were being used not to "detect and prosecute crime but…to shield profiteers, bribe takers and favorites."

By the summer of 1924, Harding's successor, Calvin Coolidge, had gotten rid of Burns and appointed a new attorney general, Harlan Fiske Stone. Given the growth of the country and the profusion of federal laws, Stone concluded that a national police force was indispensable, but in order to serve this need, the bureau had to be transformed from top to bottom.

To the surprise of many of the department's critics, Stone selected J. Edgar Hoover, the twenty-nine-year-old deputy director of the bureau, to serve as acting director while he searched for a permanent replacement. Though Hoover had avoided the stain of Teapot Dome, he had overseen the bureau's rogue intelligence

division, which had spied on individuals merely because of their political beliefs. Hoover had also never been a detective. Never been in a shoot-out or made an arrest. His grandfather and his father, who were deceased, had worked for the federal government, and Hoover, who still lived with his mother, was a creature of the bureaucracy—its gossip, its lingo, its unspoken deals, its bloodless but vicious territorial wars.

Coveting the directorship as a way to build his own bureaucratic empire, Hoover concealed from Stone the extent of his role in domestic surveillance operations and promised to disband the intelligence division. He zealously implemented the reforms requested by Stone that furthered his own desire to remake the bureau into a modern force. In a memo, Hoover informed Stone that he had begun combing through personnel files and identifying incompetent or crooked agents who should be fired. Hoover also told Stone that per his wishes he had raised the employment qualifications for new agents, requiring them to have some legal training or knowledge of accounting. “Every effort will be made by employees of the Bureau to strengthen the morale,” Hoover wrote, “and to carry out to the letter your policies.”

In December 1924, Stone gave Hoover the job he longed for. Hoover would rapidly reshape the bureau into a monolithic force—one that, during his nearly five-decade reign as director, he would deploy not only to combat crime but also to commit egregious abuses of power.

Hoover had already assigned White to investigate one of the first law-enforcement corruption cases to be pursued in the wake of Teapot Dome. White took over as the warden of the federal penitentiary in Atlanta, where he led an undercover operation to catch officials who, in exchange for bribes, were granting prisoners

nicer living conditions and early releases. One day during the investigation, White came across guards pummeling a pair of prisoners. White threatened to fire the guards if they ever abused an inmate again. Afterward, one of the prisoners asked to see White privately. As if to express his gratitude, the prisoner showed White a Bible, then began to lightly rub a mixture of iodine and water over its blank fly page. Words magically began to appear. Written in invisible ink, they revealed the address where a bank robber—who had escaped before White became warden—was hiding out. The secret message helped lead to the bank robber's capture. Other prisoners, meanwhile, began to share information, allowing White to uncover what was described as a system of "gilded favoritism and millionaire immunity." White gathered enough evidence to convict the former warden, who became prisoner No. 24207 in the same penitentiary. A bureau official who visited the prison wrote in a report, "I was very much struck with the feeling among the inmates relative to the action and conduct of Tom White. There seems to be a general feeling of satisfaction and confidence, a feeling that they are now going to get a square deal." After the investigation, Hoover sent a letter of commendation to White that said, "You brought credit and distinction not only to yourself but to the service we all have at heart."

White now arrived at headquarters, which was then situated on two leased floors in a building on the corner of K Street and Vermont Avenue. Hoover had been purging many of the frontier lawmen from the bureau, and as White headed to Hoover's office, he could see the new breed of agents—the college boys who typed faster than they shot. Old-timers mocked them as "Boy Scouts" who had "college-trained flat feet," and this was not untrue; as one agent later admitted, "We were a bunch of greenhorns who had no idea what we were doing."

White was led into Hoover's immaculate office, where there was an imposing wooden desk and a map on the wall showing the locations of the bureau's field offices. And there, before White, was the boss man himself. Hoover was then remarkably slim and boyish looking. In a photograph taken of him several months earlier, he is wearing a stylish dark suit. His hair is thick and wavy, his jaw is held tight, and his lips are pressed together sternly. His brown eyes have a watchful gaze, as if he were the one looking through a camera.

Hoover at the Bureau of Investigation in December 1924 Credit

White and his cowboy hat loomed over the diminutive Hoover, who was so sensitive about his modest stature that he rarely

promoted taller agents to headquarters and later installed a raised

dais behind his desk to stand on. If Hoover was intimidated by the sight of this monstrous Texan, he didn't show it: he told White that he needed to discuss a matter of the utmost urgency with him. It had to do with the murders of the Osage. White knew that the sensational case was one of the bureau's first major homicide investigations, but he was unfamiliar with its details, and he listened as Hoover spoke in staccato bursts—a strategy that Hoover had devised in his youth to overcome a bad stutter.

In the spring of 1923, after the Osage Tribal Council had passed the resolution seeking the Justice Department's help, the then director, Burns, had dispatched an agent from the bureau to investigate the murders, which by then totaled at least twenty-four Osage. The agent spent a few weeks in Osage County before concluding that "any continued investigation is useless." Other agents were subsequently dispatched to investigate, all to no avail. The Osage had been forced to finance part of the federal investigation with their own money—an amount that would eventually reach $20,000, the equivalent today of nearly $300,000. Despite this expenditure, Hoover had decided, after assuming command of the bureau, to dump the case back on state authorities in order to evade responsibility for the failure. The FBI agent who was in charge of the Oklahoma field office had assured Hoover that the transfer could be handled without any "unfavorable comment" in the press. Yet that was before the bureau, Hoover's bureau, had blood on its hands. A few months earlier, agents had persuaded the new governor of Oklahoma to release the outlaw Blackie Thompson, who'd been captured and convicted of bank robbery, so that he could work undercover for the bureau to gather evidence on the Osage killings. In field reports, the agents noted excitedly that their "undercover man" had begun to work among "the crooks in the oil fields and get the evidence he has promised us." The agents proclaimed, "We expect

splendid results."

But while the agents were supposed to be keeping Blackie under close surveillance, they'd lost him in the Osage Hills. He then proceeded to rob a bank. And kill a police officer. It took months for authorities to apprehend Blackie, and, as Hoover noted, "a number of officers had to take their lives in their hands to correct this mistake." So far, Hoover had managed to keep the bureau's role in the affair out of the press. But behind the scenes there was a growing political uproar. The state attorney general had sent Hoover a telegram indicating that he held the bureau "responsible for failure" of the investigation. John Palmer, the tribe's well-known advocate, sent an angry letter to Charles Curtis, the Kansas senator, insinuating that the bureau's investigation had been tainted by corruption: "I join in the general belief that the murderers have been shrewd enough and politically and financially able enough to have honest and capable officers removed or sent to other parts, and also to quiet dishonest officials whose duty it was and is to hunt the perpetrators of these awful crimes." Comstock, the Oklahoma lawyer who had served as the guardian to several Osage, had personally briefed Senator Curtis on the bureau's catastrophic bungling.

When Hoover met with White, his grip on power remained tenuous, and he was suddenly confronting the one thing that he'd done everything to avoid since becoming director: a scandal. The situation in Oklahoma, Hoover believed, was "acute and delicate." Even a whiff of misconduct coming so soon after Teapot Dome could end his career. Only weeks earlier, he'd sent a "confidential" memo to White and other special agents, stating, "This Bureau cannot afford to have a public scandal visited upon it."

As White listened to Hoover, it became evident why he'd been summoned. Hoover needed White—one of his few experienced

agents, one of the Cowboys—to resolve the case of the Osage murders and thereby protect Hoover's job. "I want you," Hoover said, to "direct the investigation."

He ordered White to set out for Oklahoma City and assume command of the field office there. Later, Hoover pointed out to White that because of the region's lawlessness, the field "office is probably turning out more work than any other office in the country and, consequently, has to have in charge of it a thoroughly competent and experienced investigator and one who can handle men." White knew that relocating to Oklahoma would be a great burden to his family. But he understood the stakes of the mission, and he told Hoover, "I am human enough and ambitious enough to want it."

White had no doubt what would happen if he didn't succeed: previous agents on the case had been banished to distant outposts or cast out from the bureau entirely. Hoover had said, "There can be no excuse offered for…failure." White was also aware that several of those who had tried to catch the killers had themselves been killed. From the moment he walked out of Hoover's office, he was a marked man.

a. THE UNDERCOVER COWBOYS

After taking over the Oklahoma City field office in July 1925, White reviewed the bureau's voluminous files on the Osage murders, which had been amassed over the previous two years. Murder cases that are not solved quickly are often never solved. Evidence dries up; memories fade. More than four years had elapsed since the killings of Anna Brown and Charles Whitehorn, and frequently the only way to crack such cases is to find an overlooked clue submerged within the original cache of records.

The files on the murders of the Osage contained history in its rawest form: bits of data vacuumed up without any chronology or narrative, like a novel whose pages were out of order. White scoured this randomness for a hidden design. Though he was accustomed on the frontier to dealing with violent death, the brutality detailed in the reports was breathtaking. An agent wrote of the bombing of the Smiths' house, "The two women perished instantly, their bodies being blown asunder, and pieces of their flesh being later found plastered on a house 300 feet away." Previous agents had concentrated on the six cases that seemed most likely to be solved: the bombing deaths of Rita Smith and her husband, Bill Smith, and their servant Nettie Brookshire, and the fatal shootings of Anna Brown, Henry Roan, and Charles Whitehorn.

White struggled to find links among all the two dozen murders, but a few things were evident: rich Osage Indians were being targeted, and three of the victims—Anna Brown, Rita Smith, and

their mother, Lizzie—were blood related. Surprisingly, agents hadn't spoken to Lizzie's surviving daughter, Mollie Burkhart. Investigators were taught to see the world through the eyes of others. But how could White fathom what this woman had seen—from being born in a lodge on the wild prairie to being catapulted into a fortune to being terrorized as her family and other Osage were picked off one by one? The files offered few insights about Mollie's life, mentioning only that she was ill with diabetes and had secluded herself in her house.

A few details in the files seemed telling. Repeat killers tend to rigidly adhere to a routine, yet the Osage murders were carried out in a bewildering array of methods. There was no signature. This, along with the fact that bodies turned up in different parts of the state and country, suggested that this was not the work of a single killer. Instead, whoever was behind the crimes must have employed henchmen. The nature of the murders also gave some insight into the mastermind: the person was not an impulsive killer but a connoisseur of plots who was intelligent enough to understand toxic substances and calculating enough to carry out his diabolical vision over years.

As White scrutinized the data in reports, one plausible story line after another seemed to cohere. But upon close inspection, the information invariably traced back to the same dubious sources: private eyes and local lawmen, whose opinions were based on little more than hearsay. Given that corruption seemed to permeate every institution in Osage County, these sources might be intentionally spreading disinformation in order to conceal the real plot. White realized that the greatest problem with the earlier investigations was not that agents had failed to uncover any leads; it was that there were *too* many. Agents would develop one, then simply drop it, or fail to corroborate it or to conclusively disprove it. Even when agents seemed to be moving on the right track, they

had not managed to produce any evidence that would be admissible in a court of law.

As White strove to be a modern evidence man, he had to learn many new techniques, but the most useful one was timeless: coldly, methodically separating hearsay from facts that he could prove. He didn't want to hang a man simply because he had constructed a seductive tale. And after years of bumbling, potentially crooked investigations into the Osage murders, White needed to weed out half facts and build an indubitable narrative based on what he called an "unbroken chain of evidence."

White preferred to investigate his cases alone, but given the number of murders and leads to follow, he realized that he would need to assemble a team. Yet even a team wouldn't overcome one of the main obstacles that had stymied previous investigators: the refusal of witnesses to cooperate because of prejudice, corruption, or, as an agent put it, an "almost universal fear of being 'bumped off.' " So White decided that he would be the public face of the investigation, while most of the agents operated undercover.

Hoover promised him, "I'll assign as many men as you need." Recognizing the limits of his college boys, Hoover had kept on the rolls a handful of other Cowboys, including White's brother Doc. These agents were still learning scientific sleuthing, still adjusting to completing their reports on a typewriter. But White decided that these men were the only candidates who could handle such an assignment: infiltrating wild country, dealing with outlawry, shadowing suspects, going days without sleep, maintaining cover under duress, and handling deadly weapons if necessary. White began putting together a squad of Cowboys, but he didn't include Doc: since serving in the Rangers, he and his brother had avoided being assigned to the same cases, in order to protect their family

from potentially losing two members at once.

White first recruited a former New Mexico sheriff, who, at fifty-six, became the oldest member of the team. Though reserved to the point of being shy, the sheriff was adept at assuming undercover identities, having pretended to be everything from a cow rustler to a counterfeiter. White then enlisted a stocky, garrulous, and blond-haired former Texas Ranger who, according to a superior, was best suited for situations "where there is any element of danger." In addition, White brought on an experienced deep-cover operative who looked more like an insurance salesman—perhaps because it was his former profession.

One agent from the previous investigation, White decided, should be retained: John Burger. He had a comprehensive knowledge of the case—from the suspects to the trails of evidence—and he had developed an extensive network of informants that included many outlaws. Because Burger was already well known in Osage County, he would work openly with White. So would another agent, Frank Smith, a Texan who listed his interests thus: "Pistol and rifle practice—Big game hunting—Game fishing—Mountain climbing—Adventures—Man hunting." In Hoover's bureau, Smith was classified as one of "the older type of uneducated Agents."

Finally, White brought in the singular John Wren. A onetime spy for the revolutionary leaders in Mexico, Wren was a rarity in the bureau: an American Indian. (Quite possibly, he was the only one.) Wren was part Ute—a tribe that had flourished in what is today Colorado and Utah—and he had a twirled mustache and black eyes. He was a gifted investigator, but he'd recently washed out of the bureau for failing to file reports and meet regulations. A special agent in charge had said of him with exasperation, "He is exceedingly skilled in handling cases, and some of his work can

only be described as brilliant. But of what avail are many nights and days of hard application to duty if the results are not embodied in written reports? He has all the information in his head but will not commit it to paper." In March 1925, Hoover had reinstated Wren but only after warning him, "Unless you measure up to the standards that are now in effect in this Bureau, I will be compelled to request your resignation." White knew that Wren would bring an essential perspective to the team. Some of the previous agents on the case, including Burger, had betrayed the kind of casual prejudice toward the Osage that was then commonplace. In a joint report, Burger and another agent had stated, "The Indians, in general, are lazy, pathetic, cowardly, dissipated," and Burger's colleague insisted that the only way to make "any of these dissolute, stubborn Osage Indians talk and tell what they know is to cut off their allowance…and if necessary, throw them in jail." Such contempt had deepened the Osage's distrust of the federal agents and hindered the investigation. But Wren, who referred to himself as one of Hoover's "braves," had capably handled many delicate cases on reservations.

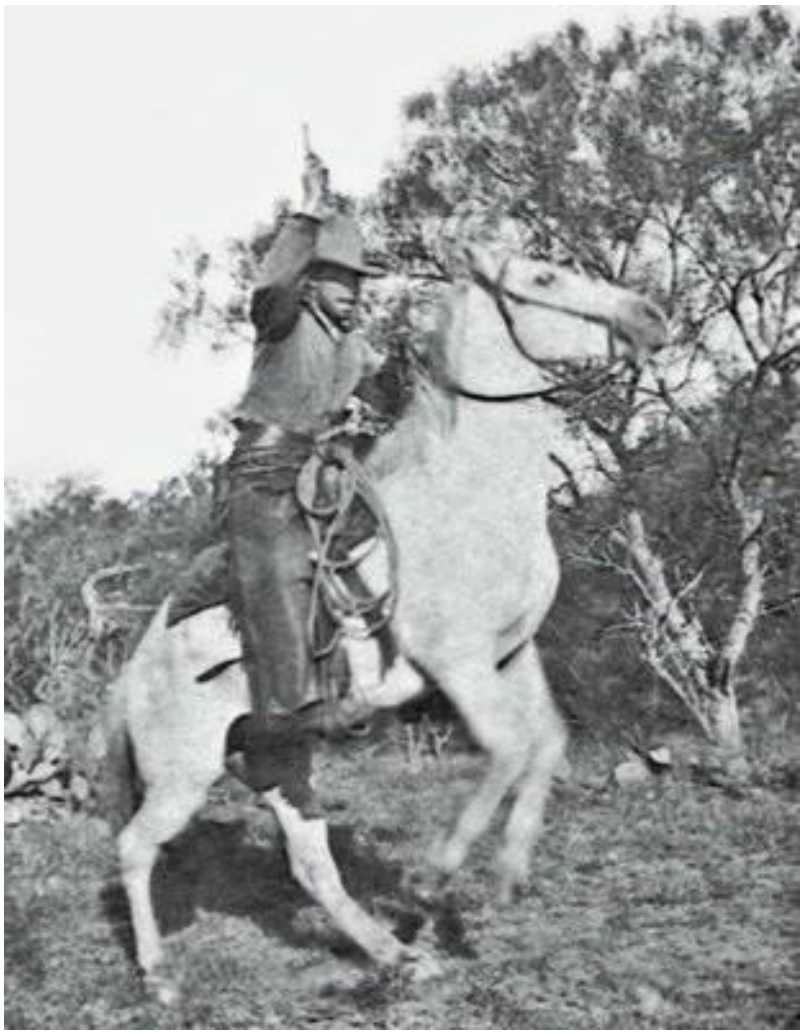

White's team included a former Texas Ranger who was said tobe suited for "any element of danger." Credit 36

White relayed to Hoover which men he wanted, and those not already assigned to the Oklahoma office received urgent orders, in code, from headquarters: "PROCEED UNDER COVER IMMEDIATELY REPORTING TO AGENT IN CHARGE TOM WHITE." Once the team had been assembled, White grabbed his gun and set out for Osage County— another traveler in the mist.

b. ELIMINATING THE IMPOSSIBLE

One after the other, the strangers slipped into Osage County. The former sheriff showed up, in the guise of an elderly, quiet cattleman from Texas. Then the talkative former Texas Ranger appeared, also presenting himself as a rancher. Not long afterward, the onetime insurance salesman opened a business in downtown Fairfax, peddling bona fide policies. Finally, Agent Wren arrived as an Indian medicine man who claimed to be searching for his relatives.

White had counseled his men to keep their covers simple so they didn't betray themselves. The two operatives acting as cattlemen soon ingratiated themselves with William Hale, who considered them fellow Texas cowboys and who introduced them to many of the leading townsfolk. The insurance salesman dropped by the houses of various suspects, under the pretense of hawking policies. Agent Wren made his own inroads, attending tribal gatherings and gleaning information from Osage who might not otherwise talk to a white lawman. "Wren had lived among the Indians…and had gotten away with it in remarkable shape," White told Hoover, adding that his undercover men seemed to be able to "withstand the rigor of the life."

It was hard for White to know where to begin the investigation. The records from the coroner's inquest into the death of Anna Brown had mysteriously vanished. "My desk was broken into and the testimony disappeared," the justice of the peace in Fairfax said.

Virtually no evidence had been preserved from the various

crime scenes, but in the case of Anna, the undertaker had secretly kept one object: her skull. About the size of a melon, the hollow chamber felt unnervingly light in one's hand, air blowing through as though it were a sun-bleached shell. White examined the skull and could see the hole in the back where the bullet had entered. He concluded, as earlier investigators had, that the bullet must have come from a small-caliber gun—a .32 or perhaps a .38 pistol. He, too, noticed the oddity that there was no exit wound in the front of Anna's skull, which meant that the bullet had lodged inside her head. The bullet would've been impossible to miss during the autopsy. Someone on the scene—a conspirator or even the killer—must have swiped it.

The justice of the peace admitted that he had harbored such suspicions as well. He was pressed on the matter: Was it possible that, say, the two doctors, David and James Shoun, had taken it? "I don't know," he said.

When David Shoun was questioned, he conceded that there was no exit wound, but he insisted that he and his brother had "made a diligent search" for the bullet. James Shoun protested similarly. White was convinced that somebody had altered the crime scene. But, given the number of people present during the autopsy—including the local lawmen, the undertaker, and Mathis, the Big Hill Trading Company owner—it seemed impossible to say who the culprit was.

To separate the facts from the hearsay contained in the bureau's case files, White settled upon a simple but elegant approach: he would methodically try to corroborate each suspect's alibi. As Sherlock Holmes famously said, "When you have eliminated the impossible, whatever remains, however improbable, must be the truth."

White relied upon Agent Burger to guide him through the murk of the previous federal investigation. Agent Burger had worked on the case for a year and a half, and during that time he had pursued many of the same leads as the private eyes hired by Hale and Mathis and Mollie's family. By drawing on Agent Burger's findings, White was able to quickly rule out many of the suspects, including Anna's ex-husband, Oda Brown. His alibi—that he was with another woman—checked out, and it became clear that the forger who had implicated Brown had fabricated his story hoping to bargain with prosecutors for better prison conditions. Further investigation eliminated other suspects, like the ruffian oil workers who had been pinpointed by Harve Freas, the ousted sheriff.

White then explored the rumor that Rose Osage had killed Anna because Anna had tried to seduce her boyfriend, Joe Allen. (Rose and Joe had since married.) White learned of the statement that private investigator No. 28 had obtained from the Kaw Indian woman, in which Rose had confessed to being the murderer. In a field report, an agent from the bureau observed, "It is a matter of common knowledge that Rose…was of a violent and jealous disposition." The Fairfax town marshal also shared with agents a disturbing detail: around the time of Anna's murder, he had found a dark stain on the backseat of Rose's car. It looked like blood, he said.

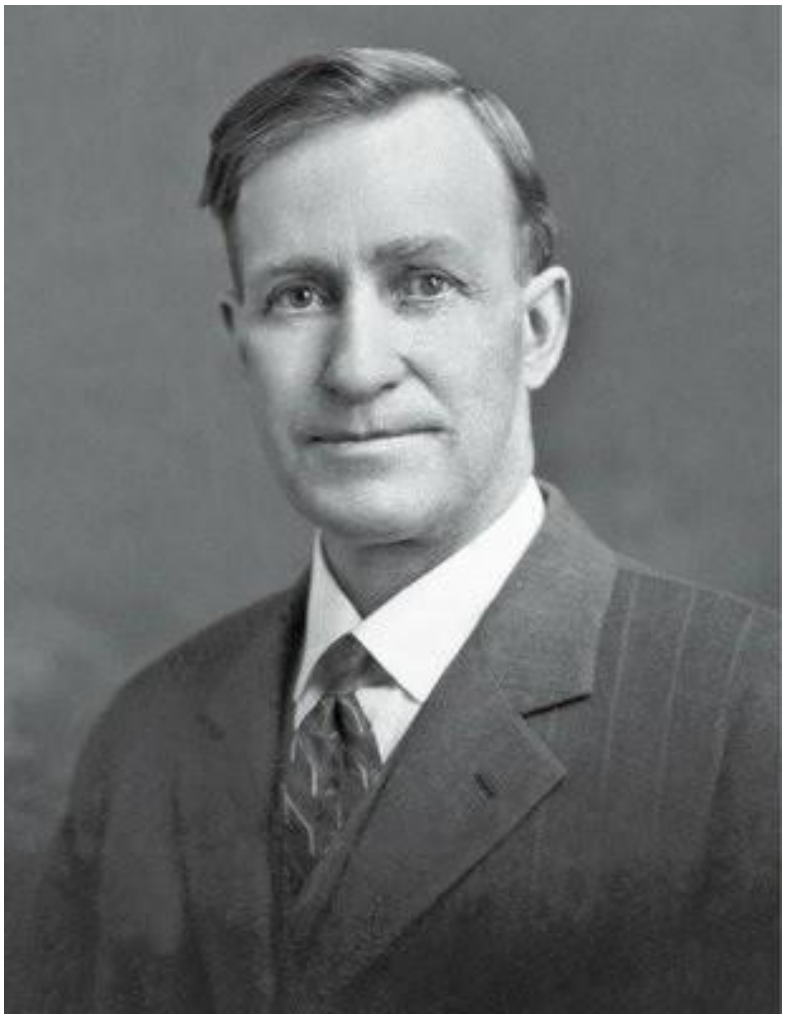

Agent John Burger Credit 37

Agent Burger informed White that he had once brought Rose Osage and Joe to the sheriff's office for questioning. The two suspects were placed in separate rooms and left to stir. When Agent Burger interrogated Rose, she insisted that she'd nothing to do with Anna's killing. "I never had a quarrel or fight with Anna," she stated. Agent Burger then confronted Joe, who, in the agent's words, was "very self-contained, sullen and wicked appearing." Another investigator had separately asked Joe, "Were you thick with Annie?"

"No, I was never," he said.

Joe gave the same alibi Rose did: on the night of May 21, 1921, they had been together in Pawnee, seventeen miles southwest of Gray Horse, and had stopped at a rooming house. The owner of

the rooming house—which was one of those seething places that often reeked of sex and moonshine—supported Joe and Rose's claims. The investigators noticed, however, that the stories told by Rose and Joe were almost verbatim, as if they had rehearsed them.

Rose and Joe were released, and afterward Agent Burger sought the help of an informant—the bootlegger and dope peddler Kelsie Morrison, who seemed an ideal source of intelligence. He'd once been married to an Osage woman, and was close to Rose and other suspects. Before Agent Burger could recruit Morrison, though, he needed to find him: Morrison had fled Osage County after assaulting a local Prohibition officer. Burger and other agents made inquiries and learned that Morrison was in Dallas, Texas, using the alias Lloyd Miller. The agents sprang a trap. They had a registered letter sent to the P.O. box listed under Miller's name, then they nabbed Morrison when he went to retrieve it. "We interviewed 'Lloyd Miller' who for about an hour denied that he was Kelsie Morrison but finally admitted that he was," Agent Burger reported.

Morrison, whom Agent Burger described as an "unusually shrewd and reckless and self-confessed criminal," dressed like a dance-hall hustler. Tall, bullet scarred, small-eyed, and jittery, he seemed to be wasting away from within—hence his nickname, Slim. "Talks and smokes cigarettes a lot," Agent Burger noted in a report. "Sniffs nose and works mouth and nose like rabbit almost continuously, especially when excited."

The feds cut a deal with Morrison: in return for getting his arrest warrant for assault quashed, he would work as an informant on the Osage murder cases. Agent Burger told headquarters, "This arrangement is strictly confidential and not to be divulged outside of this Bureau to anyone, under any circumstances."

There was a risk that Morrison might slip away, and before

releasing him, Agent Burger made sure that he'd gone through a rigorous process known as Bertillonage. Devised by the French criminologist Alphonse Bertillon in 1879, it was the first scientific method for identifying repeat criminals. Using a caliper and other special tools, Agent Burger, with the help of the Dallas police, took eleven of Morrison's body measurements. Among them were the length of his left foot, the width and length of his head, and the diameter of his right ear.

After Agent Burger informed Morrison of the purpose of these measurements, he also commissioned a mug shot, another of Bertillon's innovations. In 1894, Ida Tarbell, the muckraking journalist, wrote that any prisoner who passed through Bertillon's system would be forever "spotted": "He may efface his tattooing, compress his chest, dye his hair, extract his teeth, scar his body, dissimulate his height. It is useless."

But Bertillonage was already being displaced by a more efficient method of identification that was revolutionizing the world of scientific detection: fingerprinting. In some cases, a suspect could now be placed at the scene of a crime even without a witness present. When Hoover became the bureau's acting director, he created the Identification Division, a central repository for the fingerprints of arrested criminals from around the country. Such scientific methods, Hoover proclaimed, would assist "the guardians of civilization in the face of the common danger."

Agent Burger had Morrison's fingertips dabbed in ink. "We have his picture, description, measurements and fingerprints in the event we have cause to apprehend him," he informed headquarters.

He then gave Morrison some spending money. Morrison promised to visit Rose Osage and Joe Allen as well as members of the underworld, to see what he could learn about the murders.

Morrison warned that if anyone discovered he was working for the feds, it would mean his death.

He reported back that he had asked Rose, regarding Anna's murder, "Why'd you do it?" And she replied, "You don't know a god damn thing about it, Slim, I did not kill Anna." In a memo, Agent Burger noted of his prized informant, "If he is not bumped off too soon he can do us a lot of good."

White now reviewed all the information that had been gathered by Morrison and the agents regarding Rose Osage and Joe Allen. In light of Rose's statement to Morrison and the fact that the rooming house owner had confirmed Rose and Joe's alibi, the Kaw Indian's statement that Rose had confessed to her seemed puzzling. One detail, in particular, was curious. According to the Kaw Indian's account of Rose's confession, Anna was in the car when Rose shot her, and her body was then dumped at Three Mile Creek, where Rose also discarded her own bloodstained clothes.

The autopsy findings were telling. Criminologists had come to understand that blood coagulates at the lowest point of a body after death, producing dark splotches on the skin. If, when one finds a corpse, these splotches appear on the higher regions, it is a sign that someone has moved the body. In Anna's case, the doctors had not reported any indications of this, and from all the descriptions of the crime scene there had been no trail of blood from the car down to the creek.

It seemed that the witness must be lying and that Rose and Joe were innocent. This would explain why the Dictograph set up by the private detectives working for Mollie Burkhart's family had never picked up any incriminating statements, and why Rose's clothes had never been found in the creek. When agents interrogated the Kaw Indian, it didn't take much for her to crack.

She admitted that Rose had never told her any such story about the killing. In fact, a strange white man had come to her house, written up the statement, and forced her to sign it, even though none of it was true. White realized that the conspirators were not only erasing evidence—they were manufacturing it.

c. THE THIRD MAN

Hoover immediately began pestering White for updates. Once, when White was in the field and did not respond immediately, Hoover chastised him, saying, "I do not understand why, at the end of the day, you could not have wired me fully as to the developments and general situation." Hoover's attention to the case had waxed and waned over the years, but he had become so agitated about the growing criticism he was receiving in Oklahoma that prior to White's arrival he had started to investigate matters himself. Though he was not one to venture into the muck of the field (he had a phobia of germs and had installed in his home a special filtration system to purify the air), he would sit in his office, poring over incoming reports from agents—his eyes and ears on the menacing world.

As Hoover studied the reports on the Osage murders, he found it an "interesting observation" that Anna Brown and Roan were both killed with a bullet to the back of the head, and "after carefully going over all of the angles," he came to believe that a white woman, Necia Kenny, who was married to an Osage man, might hold the key to the case. Kenny had told agents that A. W. Comstock, the attorney who served as a guardian for several Osage, was likely part of the conspiracy. Hoover hadn't forgotten that Comstock had criticized the bureau and had threatened to turn Senator Curtis against him—which made Comstock, in Hoover's eyes, a malicious rat. "I am convinced that Mrs. Kenny is pretty well on the right track," Hoover had told one of his agents.

A. W. Comstock with an Osage Indian Credit 38

Kenny had a history of mental instability—she claimed to be possessed by spells—and she had once even attempted to murder another local attorney. Still, Hoover himself had interviewed her in Washington, not once, but twice, and he arranged for a government expert on "mental diseases" to evaluate her. The doctor concluded that she was paranoid, but noted, as Hoover put it, that she "perceives items which would escape the observation of the average individual." As a result, Hoover said, Kenny "is of greater value to us in furnishing leads than she would be possibly as a witness."

White hadn't been able to substantiate Kenny's allegations, but he wasn't sure what to make of Comstock, either. Armed with his English Bulldog revolver, Comstock was one of the few prominent

white citizens in Osage County who seemed willing to assist

investigators. He had told agents that he was sure he could secure critical evidence—if only he could have access to the bureau's files. White refused to share any confidential records. Still, Comstock would routinely come to see White, sharing helpful tidbits of information and checking on the progress of the investigation. Then he would disappear into the streets with his gleaming English Bulldog.

By the end of July 1925, White had turned his full attention to the last of the listed suspects in Anna Brown's murder: Bryan Burkhart, Mollie's brother-in-law. White learned that during the inquest, in 1921, Bryan had stated that on the night Anna disappeared he'd taken her straight home from Ernest and Mollie's house, dropping her off between 4:30 and 5:00 p.m.; Bryan then headed into Fairfax, where he was seen with Hale, Ernest, and his visiting uncle and aunt, who went with him to watch the musical *Bringing Up Father*. There wouldn't have been time for him to go to the creek, shoot Anna, and return to town before the show started. His alibi seemed airtight.

To corroborate it, Agent Burger and a colleague had earlier traveled to Campbell, a town in northern Texas, where Ernest and Bryan's aunt and uncle lived. The agents sped past the old trails that cowboys had once followed—trails that were now supplanted by cattle cars pulled by shrieking locomotives. Agents discovered that Hale had grown up in a wooded grove only a few miles from Campbell. His mother had died when he was three years old—the King of the Osage Hills, too, burdened by a past.

In Campbell, agents stopped at the austere house of Bryan's uncle and aunt. The uncle was away, but the aunt invited the investigators inside and launched into a venomous rant about how Ernest had married one of those red millionaires. Burger asked

her about the night Anna disappeared. Oh, she'd heard the whispers about how Bryan was responsible for killing that drunken Indian, she said. But none of it was true. After dropping Anna off, Bryan had joined the rest of the party in Fairfax.

The uncle suddenly appeared at the front door. He seemed displeased to find a pair of federal agents inside his home. He was reluctant to speak, but he confirmed that Bryan had met them in Fairfax after dropping Anna off. He added that after the show he and his wife had spent the evening in the same house with Bryan and that Bryan was there the whole time; he simply couldn't have been the murderer. The uncle then made it clear that he wanted the agents to get the hell out.

In August 1925, White sent his undercover operatives to infiltrate the town of Ralston. White wanted his team to investigate a lead that had not been properly followed up: on the night Anna Brown disappeared, case records showed, she might have been spotted in a car by a group of white men who were sitting in front of a hotel on Ralston's main street. Previous investigators, including local lawmen and the private eyes, had spoken to these valuable witnesses and then seemingly buried what they had learned. At least one of the witnesses had since vanished, and White was convinced that, as one agent had noted in a report, such people were being "paid by suspects to go away and stay away."

White and his men tried to track down some of the witnesses outside the hotel, including an elderly farmer who had been questioned earlier by an agent. During that initial interview, the farmer had seemed to be suffering from dementia: he had stared at the agent blankly. After a while, though, he had perked up. His memory was just fine, he explained; he'd simply wanted to make

sure that the investigators were who they said they were. Talking to the wrong person about these murders was liable to get one planted in the ground.

The farmer now spoke to White and his men. According to testimony that the farmer subsequently gave under oath, he remembered that evening well, because he'd often discussed it with friends of his who gathered regularly at the hotel. "We old fellows have a lot of time in town and that is where we sit down," he said. He recalled that the car had stopped by the curb and through its open window he could see Anna—she was right there in front of him. She said hello, and someone in the group said back, "Hello, Annie."

The farmer's wife, who had been with him in Ralston that night, was also certain that the woman in the car was Anna, though she didn't talk to her. "There was Indians so much around there," she testified. "Sometimes I spoke to one, and sometimes I didn't. Sometimes when I spoke to one they didn't speak." Asked if Anna had been slumped over from drinking, she said, "Just sitting like they all sit, just about like this." She posed herself straight and rigid, like a statue, her rendition of a stoic Indian.

At one point, she was asked if anyone had been with Anna in the car.

"Yes, sir," the farmer's wife said.

"Who?"

"Bryan Burkhart."

Bryan, she said, had been driving the car and wearing a cowboy hat. Another witness said that he also saw Bryan with Anna in the car. "They went straight west from there right on through town and I don't know where they went from there," the witness recalled.

It was the first proven crack in Bryan's alibi. He might have

taken Anna home, but he'd eventually gone back out with her. As an agent wrote in a report, Bryan "perjured himself when he swore before the coroner's inquest at Fairfax…that he had left Anna safely at her home in Fairfax between 4:30 and 5 p.m."

═══

White needed to establish where the two had gone after leaving Ralston. Piecing together details from Agent Burger's previous informants as well as from witnesses located by the undercover team, White was able to create a time line. Bryan and Anna had stopped at a nearby speakeasy and stayed there until about 10:00 p.m. Then they headed to another hell joint, several miles north of Fairfax. Bryan's uncle was spotted with them, so perhaps the uncle had been lying to Agent Burger, to cover not only for Bryan but for himself as well. The owner of the place told agents that Bryan and Anna had been drinking there until about 1:00 a.m.

Accounts of where Bryan and Anna went after that grew murkier. One witness said that they'd stopped, alone, at another speakeasy closer to Fairfax. Others reported seeing Bryan and Anna leave the speakeasy in the company of a "third man" who wasn't the uncle. "Third man is said to have been present with Anna Brown and Bryan Burkhart," Agent Burger noted. The last sighting of Anna and Bryan together that the investigators heard about had been at approximately 3:00 a.m. A witness who knew them both said that she'd heard a car stop near her house in Fairfax. A man whom she believed to be Bryan shouted, "Stop your foolishness, Annie, and get into this car."

Bryan Burkhart Credit 39

After that, there was no trace of Anna—she'd been ghosted. Bryan's neighbor, though, spotted him returning home at sunrise. Bryan later told the neighbor not to say a word to anybody, and gave him money to keep quiet.

White had homed in on a prime suspect. But, as with many mysteries, each answer to a question opened up another question. If Bryan had killed Anna, what was his motive? Was he involved in the other murders? And who was the third man?

d. A WILDERNESS OF MIRRORS

By the end of that summer, White began to suspect that there was a mole inside the investigation. When one of his agents was questioning a seedy local attorney—who, according to an informant, was trying to "strangle" the government's probe—the attorney betrayed a shocking knowledge of the inner workings of the case. Finally, he admitted that he'd "seen part of the reports made by the Bureau...and had an opportunity to see more of them."

The bureau's probe had long been plagued by leaks and sabotage. One agent complained that "information contained in reports immediately gets into the possession of unauthorized and unscrupulous persons." A U.S. attorney also discovered that the reports furnished to him by the bureau had vanished from his office. The breaches threatened the lives of agents and created insidious doubts, with officials questioning each other's loyalty. One federal prosecutor demanded that no copy of his report be "handed to any representative of the State of Oklahoma."

Perhaps most damagingly, two private eyes, including one from the Burns agency, tried to expose the bureau's main informant, Kelsie Morrison. These private eyes leaked to several local officials that Morrison was working with the bureau, then went so far as to detain him on a trumped-up robbery charge. Agent Burger said that the conduct of one of these private detectives was "reprehensible" and was "certainly hurting our investigation." Obstruction, he noted, appeared to be these private

detectives' "sole object," adding, "Someone must be paying them to do this." An agent reported that Morrison, after being released from jail, seemed "frightened out of his wits." During one of their meetings, Morrison beseeched agents to get the "son-of-bitches" who did the killings before they got him. Agent Burger warned Morrison, "Look out for double crossing and traps."

At night, White sometimes met with his team in the countryside, the men huddling in the dark like fugitives. Agents in the past had sensed that they were being followed, and White gave his men advice in case their cover was blown: "Keep your balance, avoid any rough stuff if possible." Making it clear that they should carry weapons, he added, "But if you have to fight to survive, do a good job."

The former New Mexico sheriff who played the role of acattleman on White's team Credit 40

White found himself wandering through a wilderness of mirrors—his work more akin to espionage than to criminal investigation. There were moles and double agents and possibly triple agents. No one had aroused more suspicion than the private eye called Pike. A gentleman in Osage County had once approached Agent Burger and introduced himself as an intermediary, a go-between, for Pike. Agents were aware that Pike had been hired by William Hale back in 1921 to solve the Osage murders but had abandoned the case after failing to make any progress.

The intermediary, however, said that Pike had actually withheld a crucial piece of information that he had discovered during his investigation: he knew the identity of the third man who'd been spotted with Bryan and Anna around the time that she was killed. Agent Burger wrote that Pike apparently "has known and talked with this third man." But the intermediary made it clear that Pike would share this information under one condition: that he be paid a king's ransom. "It is quite apparent there is some crooked work afoot," Agent Burger wrote in a report.

Agents demanded, through the intermediary, that Pike come forward. But again he didn't comply, evidently determined to extort money and obstruct justice. Agents launched a manhunt for Pike, whose last known address was in Kansas City. "Pike will have to be located and apprehended," Agent Burger wrote. "He changed his Kansas City address soon after it became known that we were working on him. We feel sure he has been paid to skip."

Not long after, Pike was caught allegedly committing highway robbery in Tulsa. Out of angles to play, he gave up a name of a local gambler. Agents could confirm that the gambler had been at one of the speakeasies drinking with Bryan and Anna on the night of May 21. But further investigation proved that the gambler had

gone home too early to be the third man.

It seemed as if the agents had once more been duped. But they continued to work on Pike, to pressure him, and over time he began to reveal, little by little, a hidden dimension to the case. He disclosed that he'd never really been hired to solve the murder of Anna Brown; in fact, he'd been asked to conceal Bryan's whereabouts on the night of the crime.

Pike told agents that he was supposed to manufacture evidence and to generate false witnesses—to "shape an alibi," as he put it. What's more, he claimed that his orders had come directly from William Hale.

Pike explained that Hale took pains never to say explicitly that Bryan had been involved in Anna's murder, but this was evident from what Hale was asking him to do. If Pike was telling the truth, it meant that Hale—a seeming paragon of law and order who had held himself up as Mollie Burkhart's most staunch protector—had been lying all these years about Anna's murder. Pike could not answer what White wanted to know most: Was Hale merely protecting Bryan, or was he part of a more intricate, nefarious design?

Pike, though, told agents one more thing that was startling. When he met with Hale and Bryan, Pike said, there was sometimes another person present: Ernest Burkhart. Pike added that Ernest was careful never to "discuss this case or talk it over with him in the presence of Mollie Burkhart."

1 A HANGMAN'S SON

The first time that Tom White saw a criminal hanged he was just a boy, and the executioner was his father. In 1888, his father, Robert Emmett White, was elected sheriff of Travis County, Texas, which included Austin, then a city of fewer than fifteen thousand people. A towering man with a dense mustache, Emmett, as Tom's father liked to be called, was poor, stern, hardworking, and pious. In 1870, at the age of eighteen, he migrated from Tennessee to the still-wild frontier of central Texas. Four years later, he married Tom's mother, Maggie. They lived in a log cabin, in the desolate hill country outside Austin, where they herded cattle and scratched the earth for whatever food it might yield. Tom, who was born in 1881, was the third of their five children; among them was Doc, the youngest, and Dudley, Tom's bruising older brother with whom he was particularly close. The nearest schoolhouse—which had one room and a single teacher for eight grades—was three miles away, and to get there, Tom and his siblings had to walk.

When Tom was six, his mother died, apparently from complications after childbirth. Her body was laid in a plot where Tom could see the grass growing over her. Emmett was left to raise Tom and his siblings, all of whom were under the age of ten. A nineteenth-century book profiling distinguished Texans said of Emmett, "Mr. White belongs to that class of solid, substantial farmers of which Travis county can boast....He is well known in the county, and the people have the greatest confidence in his energy and integrity of character." In 1888, a delegation of

townsfolk beseeched Emmett to run for county sheriff, which he did, winning easily. And so Tom's father became the law.

Tom (standing to the left) and his brothers, including Doc (onthe donkey) and Dudley (far right) Credit 41

As sheriff, Emmett was in charge of the county jail, in Austin, and he moved with his children into a house adjoining the building. The jail resembled a fortress, with barred windows and cold stone passageways and tiered cells. In Emmett's first year, the jail held nearly three hundred prisoners, including four murderers, sixty-five thieves, two arsonists, twenty-four burglars, two forgers, five rapists, and twenty-four inmates classified as lunatics. Tom later recalled, "I was raised practically right in the jail. I could look down from my bedroom window and see the jail corridor and the doors to some of the cells."

It was as if the Scripture were unfolding before his eyes: good and evil, redemption and damnation. One time, a melee broke out in the prison. As Sheriff White tried to quell the riot, his children ran to the nearby courthouse, calling for help. The *Austin Weekly Statesman* published a story about the incident under the headline BLOOD, BLOOD, BLOOD; THE COUNTY JAIL TURNED INTO A VERITABLE SLAUGHTER PEN. The reporter described the scene that young Tom had encountered: "The writer has seen many bloody and sickening sights in his experience in newspaper work, but none of them approached the disgusting sight that met his gaze when he entered the county jail yesterday afternoon about half past five o'clock. Turn which way he might nothing was to be seen but blood."

After the incident, in which five men were badly injured, Emmett White became a firm, even unyielding, sheriff. Still, he showed remarkable consideration toward the people in his custody and insisted on making arrests without brandishing his six-shooter. He did not philosophize about the law or his responsibilities, but Tom noticed that he always maintained the same manner, no matter whether the prisoners were black or white or Mexican. At the time, extrajudicial lynchings, particularly of blacks in the South, were one of the most egregious failures of the American legal system. Whenever Emmett heard that locals were planning to throw a "necktie party," he would rush out to try to stop it. "If a mob attempts to take the negro" from the sheriff, a reporter noted in one case, "there will be trouble." Emmett refused to put young, nonviolent prisoners in the jail alongside older, more dangerous convicts, and because there was no other place for them, he let them stay in his own house, living with his children. One girl remained with them for weeks on end. Tom never knew why she was in jail, and his father never discussed it.

Tom often puzzled over why criminals did what they did. Some of the prison's inmates seemed bad through and through, the devil

born in them. Some seemed sick in the head, seeing things that other people couldn't see. Many of the prisoners, though, had been driven to a desperate act—often, something violent and despicable—and afterward they were penitent, seeking redemption. In some ways, these convicts were the most frightening to contemplate, for they demonstrated that badness could take hold of anyone. Tom attended a local Baptist church with his family, and the preacher said that everyone was a sinner—even Emmett, the upholder of justice. These were mysteries that Tom might never solve, though he seemed to spend most of his life trying.

Tom watched his father work. At all hours of the day, including on the Sabbath, Emmett would be summoned to hunt men. Criminology was still primitive: Emmett grabbed his gun, canvassed any witnesses to the crime, then mounted his horse and went in pursuit. He also kept a pack of bloodhounds, which he sometimes deployed in the chase.

Tom's father oversaw the county jail, in Austin. Credit 42

One summer day in 1892, when Tom was eleven, his father hurried out with the bloodhounds: a family man had been gunned down while riding his horse. Tom's father noticed that, thirty paces from where the victim lay, there was a spot of trampled earth and a burned ammunition wad; it was the place where the killer had stood. White unleashed the hounds and they picked up the killer's trail, which curiously led right back to the dead man's house. As Sheriff White gathered evidence from witnesses, he learned that the victim's slayer was his own son.

A few weeks later, Tom's father was summoned again, this time in pursuit of a rapist. A headline in the *Statesman* read "RAVISHED IN BROAD DAY...Mrs. D. C. Evans Dragged from Her Buggy, Brutally Assaulted and Then Outraged—the Officers Hot on the Trail of the

Brutal Wretch." Despite a grueling chase, the rapist eluded capture. In such cases, Tom's father withdrew into himself, as if tormented by some dreadful sickness. Once, before he apprehended a fugitive, a reporter observed, "Truth to tell, Sheriff White's every thought day and night" was of the man, so much so that "his capture soon became a part of Sheriff White's very existence."

Every time the sheriff headed out into the dark, the bloodhounds howling, Tom had to live with the terrible uncertainty that his father might never return—that, like Tom's mother, he might disappear from this world forever. Though it took enormous courage and virtue to risk your life in order to protect society, such selflessness also contained, at least from the vantage point of your loved ones, a hint of cruelty.

Once, a desperado put a gun to Emmett's head; somehow, he managed to wrestle the weapon free. Another time, at the jail, a prisoner pulled a knife and stabbed his father from behind. Tom could see the knife protruding from his father's back, blood gushing onto the floor. It was amazing how much blood was inside a man, inside his father. The prisoner tried to twist the knife, and his father seemed ready to give up the ghost, when suddenly he drove his finger into the prisoner's eye, causing the eye to pop out —Tom could see it dangling from the socket. His father subdued the prisoner. But Tom would relive that scene all his life. How could one forgive a sinner who tried to kill one's own father?

The first hanging that Tom witnessed was carried out in January 1894. A nineteen-year-old black man, Ed Nichols, had been convicted of raping a girl and sentenced to be "hung by the neck until he is dead." The duty of performing an execution, which hadn't occurred in the county for a decade, fell to the sheriff.

Tom's father hired a carpenter to construct the gallows near the southern wall of the prison, the only place where the ceiling was sufficiently high. The location was ten feet from Nichols's cell, and the condemned man—who maintained his innocence and still hoped for a reprieve from the governor—could hear the planks being sawed and nailed, sawed and nailed, the pace quickening. Tom's father was determined to make the killing mercifully swift, and once the apparatus was completed, he repeatedly tested it with sacks of sand.

The governor rejected Nichols's final appeal, saying, "Let the law take its course." Tom's father broke the news to Nichols, who was in his cell, deep in prayer. Nichols tried to stay calm, but his hands began to tremble. He said that he'd like to be clean-shaven and wear a fine black suit for his appointment with death, and Tom's father promised to honor his wishes.

On the day of the execution, Tom, who was twelve years old, stood on a tier inside the jail. No one shooed him away, not even his father, and he could see Nichols, who was dressed in his new suit, being led by Tom's father to the scaffolding, time measured in each step and breath. As Tom listened, a preacher read Nichols's final statement: "Sheriff White has been very accommodating to me indeed. I feel prepared to meet death. My soul is at peace with all mankind." Then the preacher offered his own holy words. "Ed Nichols is to swing into eternity," he said. "Sheriff Death is on his black steed, is but a short distance away, coming to arrest the soul of this man to meet the trial at the higher bar where God himself is supreme ruler, Jesus, his son the attorney, and the Holy Ghost the prosecutor."

When the preacher finished, Tom heard a familiar voice. It was his father, reading the death warrant. The noose was fitted around Nichols's neck, and a black hood placed over his head. Tom could

no longer see Nichols's face, but he could see his father holding the lever for the trapdoor. At two minutes before four in the afternoon, his father sprang the trap. The body fell before jerking violently upward. Then a sound of astonishment and horror rippled through the crowd. Despite all the meticulous construction, Nichols was still moving, still trembling with life. "He kicked and jerked around a long time," Tom later recalled. "It seemed like he would never give up and die." Finally, his body stopped moving and was cut down from the rope.

Perhaps because he witnessed this—and other executions—or perhaps because he had seen the effect of the ordeal on his father, or perhaps because he feared that the system could doom an innocent man, Tom grew to oppose what was then sometimes called "judicial homicide." And he came to see the law as a struggle to subdue the violent passions not only in others but also in oneself.

In 1905, when Tom was twenty-four, he enlisted in the Texas Rangers. Created in the nineteenth century as a volunteer citizen militia to fight American Indians on the frontier and, later, Mexicans along the border, the Rangers had evolved into a kind of state police force. American Indians and Mexicans had long despised the Rangers for their brutal, shoot-first methods. But among white Texans they were widely mythologized. As Lyndon B. Johnson later put it, "Every school boy in Texas cuts his eye teeth on stories about the Texas Rangers. I wasn't any exception."

Tom's brother Dudley, equally entranced by the Ranger mystique, entered the force the same year as Tom, and Doc soon joined them. Later, Tom's brother Coley followed even more closely in their father's footsteps, becoming the sheriff of Travis County. Doc recalled the simple advice that his father gave him

upon becoming a lawman: “Get all the evidence you can, son. Then put yourself in the criminal’s place. Think it out. Plug up those holes, son.”

Like Doc and Dudley, who were each placed in separate Ranger companies, Tom received a meager salary of $40 per month—“the same as a cowpuncher,” as he put it. Tom joined his company at a campsite sixty-five miles west of Abilene. Another Ranger had once observed upon arriving in camp, “Here was a scene worthy of the pencil. Men in groups with long beards and moustaches, dressed in every variety of garment, with one exception, the slouched hat, the unmistakable uniform of a Texas Ranger, and a belt of pistols around their waists, were occupied drying their blankets, cleaning and fixing their guns, and some employed cooking at different fires, while others were grooming their horses. A rougher looking set we never saw.”

Tom learned to be a lawman by following the example of the most skilled officers. If you observed carefully, and if you weren’t too busy liquoring or whoring (which many of the Rangers were), you could learn how to track a horse through the brush—even if, as Tom once found, the thieves had deceptively turned the horseshoes backward. You picked up little tricks: overturning your boots each morning in case a scorpion or some other critter had crept inside; shaking out your blanket for rattlesnakes before lying down at night. You discovered how to avoid quicksand and how to locate streams in otherwise parched land. You understood that it was better to ride a black horse and dress in black like a personification of evil, so as not to be scoped by a gunman in the night.

Tom soon received the orders for one of his first missions: he was to accompany his captain and his sergeant in pursuit of cow rustlers in Kent County, north of Abilene. At one point, Tom and

the sergeant paused at a store to get provisions. They tied up their horses and were heading inside when the sergeant asked Tom where his Winchester rifle was. Tom told him that it was in his scabbard, on his horse. The sergeant, a man of explosive temperament, yelled, “You don’t never do that!...Go get your Winchester right now and bring it in here, and keep it right with you all the time.”

In back row, from left to right, are Tom’s brothers Doc, Dudley, and Coley. In front are Tom’s father, his grandfather, and then Tom.

Credit 43

A group of Texas lawmen that includes Tom White (No. 12) andhis three brothers, Doc (No. 6), Dudley (No. 7), and Coley (No. 13)

Credit 44

Tom, chastened, retrieved his rifle, and it was not long before he understood the sergeant's urgency: they were being tracked by the rustlers. They had to dodge being shot several times before they finally arrested the gang.

Tom became increasingly adept at dealing with what he called "rascality": cow rustlers, horse thieves, scalawags, pimps, rumrunners, stagecoach robbers, desperadoes, and other human transgressors. When he was sent with another Ranger, Oscar Roundtree, to clean up the lawless town of Bowie, a pastor wrote to White's captain, saying that he had witnessed "the lawless element completely driven from our town by the two Rangers you

sent here.”

During his time as a Ranger, Tom investigated several murders. Tom's brother Doc recalled, "We had nothing—not even fingerprints. We had to use mostly witnesses, and they were sometimes hard to come by." Even more troublesome, some Rangers had no patience for the niceties of the law. One member of Tom's company would seek out the most ruthless bad man in town and then provoke a fight, so he could kill him. Tom, who believed that a lawman could usually "avoid killing if you didn't lose your head," later told a writer that he had heated discussions with this Ranger. It didn't seem right for any man to play judge, jury, and executioner.

In 1908, while Tom was stationed in Weatherford, a town east of Abilene, he met a young woman named Bessie Patterson. She was petite, at least beside him, and she had short brown hair and sincere eyes. Tom, who'd spent much of his life in male company, was taken with her. Where he was a man of stillness, she was outspoken and a whirl of motion. She ordered him around in a way that few dared, but he didn't seem to mind; for once, it was not incumbent upon him to be in command of the world around him or the emotions inside him. His job, however, was ill-suited for marriage. Doc's captain once said, "An officer who hunts desperate criminals has no business having a wife and family."

Before long, Tom was tugged away from her. With N. P. Thomas, a Ranger who was one of his closest friends, he was sent to deal with a plague of rascality in Amarillo, in the Texas Panhandle. A Ranger reported that the city had some of the hardest crooks around and that the sheriff's office had provided no assistance in removing them; what's more, the Ranger noted, "the Sheriff has two sons who live at the whore house."

Thomas had already had several run-ins with the deputy sheriff,

and one January morning in 1909 N. P. Thomas was sitting in the county prosecutor's office when the deputy leveled his gun and shot him in the face. Thomas fell forward, blood gushing from his mouth. When the medics arrived, he was still breathing, but they couldn't stop the bleeding and he died in agony.

Many of the men with whom Tom had served in the Rangers went prematurely to their deaths. Tom saw both inexperienced and veteran officers die. He saw irresponsible lawmen die and conscientious ones, too. Roundtree, who became a deputy sheriff, was shot in the head by a rich landowner. The Ranger with whom Tom argued about usurping the law joined a posse of vigilantes and was accidently shot and killed by one of his own men. Tom's sergeant was shot six times by an assailant, while a bystander was struck twice. As the sergeant lay on the ground, bleeding, he asked for a slip of paper and scribbled on it a message for Ranger headquarters: "I am shot all to pieces. Everything quiet." Somehow, he survived his wounds, but the innocent bystander died. Then there was the time that a new recruit in Tom's company was gunned down while trying to stop an assault. Tom collected the Ranger's body and transported it to the home of his parents, who couldn't fathom why their boy was in a box succoring maggots.

After N. P. Thomas's death, Tom felt a lawlessness within him. A friend of Tom's who wrote a short sketch of his life said, "Tom's emotional struggle was brief but violent. Should he…attempt to avenge [Thomas's] death?" Tom decided to leave the Rangers altogether and marry Bessie. The adjutant general wrote to Tom's captain, saying that Tom had "proved an excellent officer" and that he would "regret to see him quit the service." But his decision was final.

He and Bessie settled in San Antonio, where the first of their

two sons was born. Tom became a railroad detective, and the steady wage made it possible to raise a family. Though he still chased bandits on horseback, the work was generally less dangerous; in many cases, it involved unmasking individuals who had filed false claims for reimbursements. Tom found these people cowards and, therefore, more contemptible than the desperadoes who risked their lives to hold up a train.

Tom was a dedicated family man, but like his father he was attracted to the darkness, and in 1917 he took the oath to become a special agent of the Bureau of Investigation. He swore, "I will support and defend the Constitution of the United States against all enemies....SO HELP ME GOD."

In July 1918, not long after Tom joined the bureau, his brother Dudley went with another Ranger to arrest a pair of deserters in a remote, wooded area in East Texas known as the Big Thicket. It was during an obliterating drought, and amid the dust and heat Dudley and his partner searched a clapboard house where the two wanted men were believed to be hiding out. The suspects weren't there, so Dudley and his partner decided to wait on the porch. At three in the morning, the darkness was suddenly ablaze with gunfire. The deserters had ambushed them. Dudley's partner was shot twice, and as he lay bleeding on the porch, he could see Dudley standing and firing one of his six-shooters. Then Dudley was falling, as if someone had undercut his legs, his massive frame smashing against the porch. His partner later recalled that he "fell, and did not get up again." A bullet had struck Dudley near the heart.

Tom's brother Dudley Credit 45

Tom was overcome by the news; his brother—who was married and had three children under the age of eight—had seemed invulnerable to Tom. The two deserters were caught and prosecuted for murder, and Tom's father attended each day of the trial until both men were convicted.

After the shooting, Dudley's corpse was transported home. A Ranger report noted clinically, "One wagon sheet, one bed sheet, one pillow, used in shipping Ranger White's body." Tom and his family retrieved Dudley's possessions, including the soft-nosed, steel-jacketed bullet that had killed him. He was buried in a cemetery near the ranch where he was born. As the Bible said, "For dust you are and to dust you will return." An obelisk by his grave read,

JOHN DUDLEY WHITE, SR HDQTRS CO TEXAS RANGERS KILLED IN LINE OF DUTY… JULY 12, 1918

Two weeks after the funeral, a cool rain finally began to fall, washing over the prairie. By then, Tom had returned to the Bureau of Investigation.